أحمد ضحية

مارتجلو.. ذاكرة الحَرَّآزْ
(مَدِيْنَةْ العَسَسْ)
رِوَايَة

إهداء
إلى (الأعدقاء)،
لا أكرهكم!

نَوَّارْ...

عندما أسفرت شمس الصَّباح فوجئ النَّاس، كل النَّاس باختفاء أبوعلي وسلوىٰ و القصر الجمهوري وكبري الحُرِّيَة والجامع الكبير وميدان الشهداء والمتحف الوطني!

كل معالم الخرطوم.. وكل معالم البلاد الكبيرة، لم يكن ثمة أثر لها!.. لم يكن ثمة أثر لمعالم جغرافيا الأمس/ الراهن.. فقط ثمة جبل مجهول انتصب في قلب السوق العربي ملقياً بظلاله حتى مواقع الطوابي القديمة غربي النيل، وبوابة عبدالقيوم!

فتح الناس راديوهاتهم وأجهزة التلفزيون، علهم يسمعون مارشات عسكرية، أو بياناً إنقلابيا ما.. لكن لم يكن ثَمَّة صوت سوى:

مارتجلووووه.. مارتجلووووو..

فيما كان طائر مارتجلو العظيم لحظتئذ، يحلق محترقا..

محترقاً حلق طائر مارتجلو.. حلق وحلق. حلق حتى تضائل تدريجياً إلى شراشف لهبية متقطعة، آخذة في التبدد والانحسار!

ها هنا كان (مارتجلو) تَتبدىٰ تلافيفه الحيَّة، عن صوته ذاته الذي لم تهدّه السنون.. شهد كل فترات السلم وكثيراً من المعارك والحروب، السلاطين والممالك والنَّاس، ولم يحدث ثمّة تغير (ما) في صوته العميق! الرَّيان بالحنين واللوعة!

في منتصف كل شهر، تتنفس رئة الكوّن الواسع، رائحة مارتجلو الرحيبة، فتستفيق الأجرام السماوية، ويسارع البدر منيراً ناصعاً، بالقاء ضوءه الوديع، الساحر، على الوديٰان الرَّملية الرَّطبة!

ومن مكان (ما) خلف الوادي العميق الحزن والوحشة، بالتحديد مكان (ما) لا– شرق، لا–غرب، لا– شمال أو جنوب!.. من ذلك المكان بالضبط، ينبعث صوت جَدَّتي، وهي تحكي عن مارتجلو!

مارتجلووووو...

هكذا كان الصّوت معبراً ونافذاً، بلا صدى!.. حيث تنهزم قوانين الصّوت وأضاليل الفيزياء، وحيث يسبح الصوت في الفراغ المهيب، مليئاً بالأصوات السِّرِّيَة الساكنة. الملأى بالهواجس والظنون، والدلالات التي لا يفهمها سوى شعب الوادي الوادع أسفل جبل مارتجلو!

عندما قالت نَوَّآرْ ذلك، تذكر أبوعلي طمأنة جارتهم القديمة له.. تلك الأربعينية الفاتنة، بوحئذ شكرها في سرِّه، وتمنىٰ لو رآها الآن، ليغدق عليها من فحولته، بكرم لا حدود له!

ومع ذلك كانت أحاديث الصِّبيَة المراهقين، تقلق أبوعلي رغم تطمينات تلك الجارة الفاتنة، التي بذلت سحرها كله بسخاء دون منٍ، لترسخ داخله اليقين، لكن هؤلاء وأولئك الصِّبيَة من أقرانه، لا يفتأون ينظرون إليه بمكر، ويراقبون حركاته وسكناته في خبث شقي، وهم يتعمدون رفع عقائرهم باتجاهه، يتحدثون عن وظائف العصفور الذي (يَكِّنُ) إلى العش بين فخذيه!
ومع أن الأمر لم يكن بحاجة منهم، لبذل كل هذا الجهد، لسرد مسيرة حياة هذا العصفور، العامرة بالوقائع والأحداث، منذ تسببه في إغتيال قابيل لشقيقه، وحتى آخر جريمة شرَّف تحدث كل يوم، في الاصقاع النائية عن كوكب الأرض الحزين!
ذلك أن العصفور الشَّقي عبر التاريخ، انتشرت شهرته في آفاق كل عصر!.. حتى أن أهم (الحدود) في الديانات كالجلد والرجم والدفن على قيد الحياة، أستلهمت لقمع شقاوته ومغامراته وصولاته وجولاته، في خدور الحرائر والنساء الفاتنات!
وفي الحقيقة مثلما ارتبطت هذه الشهرة بالأديان، لكنها أيضا وُثِقت في مآس عظيمة، جسدها كتاب مكتئبين، يعانون من الضعف الجنسي، كشكسبير وزيفاكو وزولا وموارفيا وولسن وغيرهم! في أعمالهم الارتكاسية العصابية الموترة!
مثلما جسدها من قبل كتبة دار الحكمة، بتدوين أشعار العصر الجاهلي، بهَنِّهِ الراب ومآكمه التي يضيق عنها الباب، وألف ليلة، ونوادر ومُلَح الشبقين والشبقات، فدار الحكمة اعتنت بتتبع أفعال هذا العصفور الشقي، وأولته اهتماما أكبر من الإهتمام الذي حظي به الرفيق إفلاطون، وبني جلدته من فلاسفة حضارات كتاب الموتى والكاماسوترا!
بل أن بعض الشيوخ الأئمة، دبج المؤلفات التي لا حصر لها في دراسة كل ما يحيط بهذا العصفور الضَّال من مؤثرات، ولم تتوقف هذه المؤلفات عند حدود إعادة الشيوخ الطاعنين في السن إلى صباهم، أو عند حدود فتاوى ارضاع الكبير والموادعة، ونكاح الزوجة الميتة! فما بذله هؤلاء المخابيل من جهد في هذا الخصوص، كان أكبر من الجهد الذي بذلوه لتأويل آخر الديانات وتحديثها!

"لنتزوج الآن آدمو يا حبيبي"
"إذن أخيرا وافق مارتجلو"

كان يطيب لأبوعلي أن يمارس قلقه متى شاء!.. وكيف شاء!.. لا يأبه للآخرين الذين ولا يرون فيه إلا ما يريدون رؤيته وتصَوُّره!

الأمر يتوقف دائماً على الزاوية التي ينظرون إليه منها.. ولذلك أنتحر خالد الفتى القزحي، لأنه أستجاب، لتصورات الآخرين عنه، ليس كما هو كائن حقيقة!

تنهد أبوعلي بحرقة! وهو يكرر لنفسه:

"لن تنتحر ياشهاب؛ ولن تقف مكتوف الأيدي، و منذ الآن ستفعل مايجب أن يُفهم كما هو! لا كما يريدون أن يفهموا!"

"انتحار خالد هي نقطة البداية يا أبوعلي"

قالت سلمى، فأجاب كمن يحادث نفسه:

كان خالداً كابياً بنظراته المنهكة، بجسمه الناحل، بحزنه الغامض، مأساته الأزلية.. كان محض مأساة تمشي على قدمين!

آخر مرَّة إفترقنا فيها قبل سفره المفاجئ ذاك.. ذاك السفر الذي لم يعد منه أبداً، كنت أعلم أنه سيحرق كل المرَّاكب التي سيعبر عليها إلى ميناء خالدة، فقد حطمت الأعاصير الميناء، وكان من الصعب عليه أن يرسو!.. وليست ثمة جدوى من أن يطلق للريح اشرعته!..

"خالد أنهى حياته على نحو تراجيدي مثالي!"

قال عبدالله، في ذلك المساء المشحون بالحمىٰ والتوتر ثم أضاف:

"أغلق على نفسه الدُّكان، أوثق جسمه على (العنقريب القِّد)، بعد أن إرتدى كل ثيابه التي يملكها بعضها فوق بعض. كان قد بللها بالجاز، بعد أن أوصل التيار الكهربائي، إلى أطرافه ثم أشعل النَّار، وجرَّ التأمين في اللحظة ذاتها!

لم يكن من السهل عليّ إستيعاب هذه الصدمة.. شريط دموي ينساب ويتقطَّر من القلب وإلى القلب: نقطة، نقطة!.. ينسكب على مناخ (البنشات) المترَّع بالأسى والمشحون بالتوتر، فيزيد الجامعة على قتامتها قتامة!

كان خالد قد قرر أن: المواسم والأطفال أغنية خبيثة، وخصوبته أجتهدت لكي تلد البوار.. كما كان يطيب لصديقه عثمان بشرى القول في حزن!

"خالد عاش أوربا بكل خلجاتها، لم يكن سهلاً عليه، أن يحوله والده الجشع تاجر السوق السوداء، إلى مشروع تاجر مع سبق الاصرار والترصد، في دُكانَة صغيرة لبيع المواد التموينية لأهل حيِّه الشعبي البائس!

أمامه تكوَّم الفحم و الحطب، ولقاء رطل من السكر، بامكانه أن يفرغ فحولته في إحدى الفقيرات، المهجسات باسكات صراخ أطفالهن مشرعي الأفواه!

لم يكن سهلاً عليه أن يلج عالماً لا ينتمى له!..

كان عبدالله يتكلم كجهاز التسجيل، وكان خالداً ماثلاً يملأ المكان بالهتاف!

كان أقرب مني إليَّ! لم يكن يُخفي عني شيئاً، والخطأ الأكبر أنني أخفيت عنه نَوَّارْ، كسر حميم!..

لم يكن هناك شئ لا أعرفه من حديث عبدالله الذي يعذبني، ينغرِّس داخلي كالنصل، يقطع يميناً و شمال! وهو لا يتوقف إلا ليواصل:

عندما ترك الجامعة لظروف غامضة إثر سفرته المفاجئة كان يتوغل في روح بول إلوار، وفيتزلاف نزفال.. كان يريد أن يكون تجسيدا للحرِّية، لدرجة التحوُّل إلى طاقة، كما كان يصرِّح دائماً وهو يتحدث عنهما!

لقد كان كالمسيح يحمل أخطاءنا جميعاً.. لم تكن الموازنة سهلة ووالده يجبر إبنة شقيقه الأكبر، المريضة نفسياً على الزواج من عجوز متصابي مهووس!

ولم يكن أحد ممن بالعائلة يجرؤ على أن يقول لا!.. فكر خالد ثم قدّر، فقرر.. يااااه.. كان قاسياً في خياره!.. اختار خاتمته على نحوٍ مخيف!

كانت عظامه قد تفحمت وتحوَّل اللحم الذى يكسو جسمه، إلى مزق من الشواء المهترئ! كان قد تمزق وتفحم تماماً! لكن ظل المكان معبأ بالهتاف، ورائحة التوحد والانصهار!

توحد خالد في النَّار المقدسة لأجداده القدماء.. أعظم كتشافات الانسان الأول! نار المارتجلو!.. انتحر، ووفود القادمين للتهنئة بزواج إبنة شقيقه، تتحول إلى وفود تعزية دون توقع!

كان أدمو في تللك الليلة، التي لم يحتفل فيها شعب الوادي بعيد إستقلاله ـــعيد فشل الزَّحف الكسوفري– وتمزق جسد كسوفرو إلى أشلاء، وتشتت شعبه في قرى الداجو الصغيرة تتخلل الوديان ـــمن بلبل دار منقرة حتى بلبل دلال العنقرة وفور برنقو وتمبسكو والله مرقاـــ من الاماكن التى سقط عليها شئ من أشلاءه!
كان آدمو في تلك الليلة التاريخية لشعب الوادي، والتي على غير عادته خلَّت من ـــالبقو والكسوك و المرين والدامرقة– ورائحة الغرام الطري!.. كان قلقاً ومتوتراً، ليس كعادته.. لم يكن الأمر لتأخر (نينا) عن القدوم فحسب، بل لشيئ ما، شيئ آخر يجتاح دواخله، ولا يدري أحد كنهه بالضبط، يحاول أن يهيم في انتظار نينا، حفيدة الكيرا، فتلتهب أحاسيسه أكثرَّ! سمع وقع خطوات خفيفه على (القش) المتناثر عند مدخل قطيته التي توسطت (جبراكة الماريق) أطلت نينا لاهثة فخفق قلبه بشدة!

منذ دخلت نَوَّآرْ عالمه، أو دخل عالمها، لم يعد يهتم بالغناء أو ذكرى البرندة (الابلكاش)، لكن شئ واحد ادركه جيداً، هو أن وعيه بعصفوره الغامض، غريب الأطوار، قاده إلى سؤال التاريخ؟
وهكذا عرف السياسة!..
الاحساس بالتصالح الذي كان يستفزه، تجلل بالضباب، أثر على تنفسه المتصاعد، تلمس أبوعلي فراشه الحاف ولأول مرَّة منذ سنوات طويلة، لم يشعر به حاف، موحش الى هذه الدرَّجة من الفجيعة!
ترى القلب ليس بخاوٍ!
كان أبوعلي يستلذ الفوضى بينما يراه الآخرون مرتباً؟!
"لايرون غير ذلك؟"
وكان يحب نَوَّآرْ حد الجنون أو هكذا كان يشعر دائماً!
"سلمى تعتب عليك"
"لماذا؟!"
"لأنك تتجاهلها!"
"ماذا تعني؟!"
"الفتاة تحبك يا أبوعلي!"
"وماذا يتوجب عليّ أن أفعل يامحمود.. لقد اخترت خاتمتي!"
كلهم يا أبوعلي يعتقدون أنك تحمل جبلاً من الجليد بداخلك.. لا أحد فيهم يرى الأتون المشتعل الذي يتسرب شفيفاً ويفيض!
"مابك ياعادل؟!"
"سلوى"
"من.. آه، مابها؟!"

"أوصت نهى.. حملتها رسالة.. أنها تريد أن تراك!"
"إذن، آخيراً قررت الخروج على عزلتها.."

ذبح صدرى بنظراته الموغلتان في الصمت! كان الوقت أصيلاً عندما خرجت وحدي من الجامعة، شققت دروب المدينة المكفهرة لا ألوي على شئ.. كانت نظراته لا تزالان تتبعانني، خطواته المثقلة بالخبث و الرداءة تلحان في السؤال عني..
دفعتنى أشجاني الموبؤة بنَوَّآرْ للدخول في حلقات الازدحام البشري، وأنا أشارف بدايات السوق، ببناياته الغبية متبلدة التصاميم! فشلت في الاختباء بين الأجساد المرهقة. كنت أدرك أنني واقع في أيديهم لا محالة، لكن لأقاوم.. وعند أول منعطف جانبي قلت لنفسي:
"لتتكئ على صدرك المذبوح قليلاً ياشهاب!"
التقطت أنفاسي، ومضيت أخترق طرق وعرَّة المسالك، تناثرت على جنباتها العجفاء، ماعزات كجذوع ممسوخة، لشجيرات جميز هرمة احترقت حوافها! تنهدت بارتياح وقدماي تطئآن عتبة دارنا! بيت أختي!
لم أكن واثقاً من معرفتهم لبيت أختي، لكنني كنت واثقا من أنني ضللتهم بما يكفي.. دخلت الحمام.. خرجت، ودخلت إلى الصالون.. نمت.. صحوت في الواحدة صباحاً على صوت موتوسيكلاتهم وعرباتهم القميئة، وهي تمزق طفولة الليل وتهشم الهدوء تماماً!
قفزوا من جدران المنزل الخارجي، مشهرين أسحلتهم القصيرة، كنت قد سارعت بالإختباء خلف جوال فحم متهالك، تتكئ أضلاعه على الجدار الخلفي للبيت، سمعتهم يسألون أختي:
"أين شهاب؟!"
"في الداخلية"
"بل هنا، رأيناه يدخل هنا، في تمام الحادية عشرة مساء!"
"خرج بعدها!"
"أنت كاذبة! نحن نراقب المكان. لم نغفل عنه!"
صرخ طفل أختي من الفزع وعيناه تفارقان النوم..
"أين زوجك؟"
"مسافر"
صفعها أحدهم:
"أين شهاب؟!.. تكلمي!"
ردت باصرار لا يشوبه خوف:
"لا أدري، هذا هو البيت عندكم.. فتشوه"..
كحلزون على سطح أملس، انزلقت من جدران السور الطيني الخربة لبيت الجيران الملاصق لبيت أختي، وتسللت بهدوء!.. احتضنت الشارع الفسيح.. ركضت الكلاب تجاهي.. كادت دقات قلبى المندفع تمزق كياني دفعة واحدة.
عند منعطف جانبى هدأت من ركضي، وأخذت أسوي من وضع ثيابي المتهدلة!
توقفت عند منعرج بدى لي كهيكل متوحش لحيوان خرافي، يمارس الجنس فيما يلفظ أنفاسه الأخيرة!.. لبثت أنفاسي لبرهة في طريقها للهدوء، ثم تصاعدت مرة أخرى!

لم أكن ود حبوبة!..
تصاعدت أنفاسي أكثر وأضواء كاشفة تطوق الدرب الوَّعر تماماً! همست لنفسى:
"يبدو أنك ستعتقل هذه المرَّة أيضاً يا أبوعلي"
كان صوت (مستر ريد) و أبناء الانجليز يأتي كالفحيح.. ثابت.. ثابت...

قلت لسلوى ذاك المساء:
"أنجزنا الغرباء مالايعدون!"
فشهرت حنجرتها بالهتاف، ليطلع بوحها مالئاً فجوات الشتاء الكئيب..
المسام الضوئي في زندها، يتسربه المساء المريب، تتحد والغسق، فيصبح الإحساس متوحداً في أغنيتها المتوترة..
كان الظل يقترب من الضحى، والضحى ينأى عن الليل.. يتماهى الخيط الفاصل بينهما، فتنبثق ملامح عتَّام إذا الوقت سجى!
رغبة صارخة في أن أحرق أي شيء، هاجمتني تلك اللحظة، عندما رفعت شقيقتي صوتها بوجهي، إحتجاجاً على أقترابي أكثر من أصدقائي الأقرَّب مني الىَّ!..
حينها شعرت بنفسي أنتمي قسراً، لسلالات الصراصير والجرذان، فأبتلعت زبد الكلام لأحقن مزيداً من تشدق مرتقب!..
كنت مسكونا ًبالرحيل المفاجئ لخالد الفتى القزحي، والأب الضَّال وسبيل العودة والمستقبل المظلم والجامعة الخاوية على عروشها والخدمة الإلزامية اللا-إنتماء!
وأيضا حينها كنت مسكوناً بنَوَّاَرْ والوطن الفضيحة، وأصحابي الرائعين يتقلصون في إجتماعهم الدائري ويشغل مكاني بينهم الفراغ!..
وحينها استقلت من التنظيم، وأخذت أبحث عن نفسي بين تلافيف الكلام (الما خمج).. وعيني أختي الحمراوتين المتطايرتين بالشرر، تحرقانني.. اكتشفتها لأول مرة:
"شريرة!.. نكدية!"..
وكان الرفاق في إجتماعهم دوني، يتقلصون أكثر على صدى نبرات صوتها الاحتجاجي الصارِّخ!.. كانت تخشى مداهمة الأمن لنا، وتعتقد أنني أخاطر بأسرتها!.. أخذت تبكي مرعوبة، لم تكن تدري أنني أحمل روحي على راحتي وأن الأمر عادياً تماماً!
لكنها كانت تقرر شئياً واحداً فقط، سيطر على ذاكرتها تماماً.. رأتني في تلك اللحظة أموت متأثرا، بلسعات الكهرباء والضرب المبرح والحروق، فارتفع صوت عويلها أكثر، وأخذت تتحدث عن أمي المريضة بالضغط:
"ستقتلها!"
وانفجرت:
"ستقتيلنى أنت.. أصبحت صغيراً بنظرهم! حقا لقد استقلت، ولكنني الآن أعمل فقط على تأمين هذا الإجتماع.. أنه آخر شيء أختم به حياتي في التنظيم، صدقيني!"
كان عبدالله ورفاقي حريصون بألا يشعرونني بأنهم سمعوا شيئاً! وكنت واثقاً أنهم سمعوا كل شيء!
كانت ملامح الطريق بيني وبين أختي قد بدت واضحة.. شقيقان يفترقان على الوطن.. وطريق العودة يبدأ من حيث نرحل ويغترب الوطن عنا.

أحسست بنفسي ضائعاً، مشرداً وأنا أودع بيت أختي للمرَّة الأخيرة، دون نية للرجوع أوالتراجع.. فيما سلوى في داخلي تغني للنَوَّارْ.. فتتسلل الخرطوم شغاف الأغنية، وتتبدى واسعة، والملجأ الآمن ينحسر مع أنحسار شقيقتي داخلي، فيفتح لي التشرد ذراعيه رحبتين!
مزيداً من الوجع والحرمان.. تتبدى الأشياء مستلبة والطريق موحشة وعرَّة والذئاب ينتشرون في كل مكان.. إتكأت على نفسي ورغبة أخيرة في البكاء على أطلال أفكاري لهدم العالم وإعادة بناءه وفق ما أهوى، تسد بنشيجها حلقي! كيف لي أن أشهر إنعتاقي مما ظللت أؤمن به لسنوات طويلة، كيف لي سوى الذي ليس لي!..
وسلوى تعالجني بصوتها الدافىء الحنون.. أغلقت حدقتي عيني وتحسست أجفاني المحاطة بالهالات السوداء، قاومت تلك الرَّعشة في يدي، وصافحتها، احتضنت كفها بين يدي:
"لكم أحبك يا سلوى، يا شبه نَوَّارْ!"
الخرطوم هذه المدينة النمرودة، تضيئ شوارعها من دمنا.. ننزف فيها ملء بوحنا، تنطفئ أنوارها أمامي وخلفي، فأين المفر؟!..
أين المفر وهى تطأني كعقب سيجارة تستميت ذؤابته في البقاء مشتعلة، كمستصغر الشرر.. جذوة خامدة كمشاعري، تنطفئ ببطء دون جذوَّة!
حلمت يقظاً بمستقبل جميل، فتبدد الخوف من الآتِ قليلاً، طردت اليقظة وتداعيت.. فيما يرى النائم.. ركضت على قلبي.. مليون جرح، كل جرح بميل مربع، حاولت أن أنبت فى كل ميل فألاً حميماً يَنُثُ مربع الجرح!.. تسلل صوت سلوى من داخلي:
"عتَّام رجل فقد ظله ذات مساء، فتشوَّهت بقعة ما في قلبه المضيئ، أصبح قبل يوم منسي مواجهاً بتناقضات الواقع كفارس قادم من القرون الوسطى، رافق روبن هود في معاركه الدونكشوتية، وأضحى بعد يوم آخر، في زمن آخر، محض ذاكرة موغلة في النسيان"
"لكنه ظل في عصرنا الحالي مريباً، مهيباً، وغامضا، تشير تفاصيله الى المجهول، والعدم!"
كان عتَّام رغم كل شئ يحافظ على شيئ ما، نبيل في جوهره، لكن بطريقة مشكوك فيها! وكان يشكك دائما في طُهرالآخرين، ويدعي أن لاشيئ يربطه بهذه البلاد سوى حذاْءه المركوب، الشعبي محلي الصنع، من جلد البقر النئ، كأسطورة مخيفة ومحببة في آن، فهو يعرف الكثير عن الشعوذة والإستخبار والآداب والفنون والعلوم، ولايفهم في التاريخ سوى المفهوم التآمري!
مغرم بدراسة الجانب المظلم من الاقتصاد، وهو يخرج نفسه من داخله، يضعها بعيداً عنه، ويأخذ بمراقبتها لأيام ربما تمتد لشهور! ثم يأتي ليتحدث عن الأقسام المختلفة للإقتصاد وعلاقتها بعلم النفس والباراسيكولوجي، وكل هُراءات العلماء السمكرجية والنجارين، الذين أغرم بكتاباتهم الكابوسية!
تنهدت سلوى:
"هذا عتَّام ياشهاب.. رجل من العتمَّة، بنكهة الأبنوس الطرِّي، يمكن تقسيمه إلى شخصيات متباينة ومتنوعة ومتعددة لا تخلو من التعقيدات الحضارية!"
"لم يكن هكذا عندما كنا ندرس معا في الثانوي!"
"بل هو أبو الهكذا ذات نفسها، منذ شبَّ عن الطوق.. لا تنسى أنه توأمي وأعرفه جيدا!"
"لم يكن يحترم الوسائل المشروعة أبدا، يقحم أنفه في تفاصيل الآخرين على طريقة جيمس بوند الشهيرة!..
ذات مرَّة في فترة الثانوي أحب إحداهن، لم تكن تحبه! ولقربي منه وقتها كان يستشيرني في كل مايختص بها ولم يحاول أبداً أن يصارحني بوضوح بأنه يحبها، بل كان يبرر إهتمامه بها دائماً بالعبارة التاريخية الشهيرة، التي يستخدمها العشاق المترددون:
"بت الحلة!"

قلت لها:
"نعم، أعرف حبيبته تلك بل سألني ذات مرَّة:
"لماذا لم تصارحني بأنك كنت تعرف بأنني أحبها؟!"
"لأنك لم تعاملني بشرف، كنت تحدثني عنها بإعتباري أنا الذى يحبها لا أنت"
"أنت خبيث!"
"وأنت وغد!"
كنا لحظتئذ نمشي على رصيف الجامعة، تعثرت سلوى فاتكأت على ظلي لأسندها، تعثرت أنا ولم يكن لها ظل يجنبني السقوط عبر ثقب الليل، فجذبتها نحوي لتحلق بي في الفضاء الشاسع، ثم لم أشكرها، ولم تشكرني، واكتفى كلانا بالذوبان في كيان الآخر كعادتنا!
قبل أن أتعرف على سلوى قلت لخالد:
"هناك أنثى في خاطري، أنثى رائعة، لو وجدتها سأحفظ بها التوازنات غير المستتقرة بهذا البلد اللعين!"
ضحك خالد، وكان عتام قد إختفى منذ زمان بعيد، لم نسمع بسيرته إلا وهو خارج البلاد الكبيرة!
"كان ذلك بعد إمتحانات الشهادة الثانوية. استخرجت شهادته وأرسلتها له بالبريد، وحتى الآن لا أدرى كيف خرج، لكنني فرحت. قلت في نفسي ربما تغير أمريكا في طباعه، أنا وشقيقي عتَّام تعذبنا طويلاً يا أبوعلي!"
نأى صوت سلوى بعيداً حاملاً أنغامه إلى جوف الصدى. وبعد رغبة في الإحتراق لا تزال تهاجمني، كلما تذكرت احتداد أختي فى الكلام معي!

زفر آدمو زفرة حارَّة خالها تذوب في الصوت الآتي من مكان ما:
آاااه، ووه.. مارتجلووه!
في تلك الليلة وعلى غير عادة أهل القرية، الذين خرجوا من حرب لتوهم، لم يكن محور أحلامهم ذلك الفارس الملتحي، الذي أتى من شمال أفريقيا بساق واحدة ورمح، متقدما الزحف السوفري بثلاث أيام وليال!
فمنذ الحرب الأخيرة مع (الجنجويد) وحلفائهم لم يعد هذا الحُلُم سوى ذكرى بعيدة لكابوس بغيض!.. ولم يعد أحد يطيق سيرَّة ذلك الفارس في زمنه السحيق، الملقي بظلاله على راهن شعب الوادي!
ولم يعد ثمَّة من يتذكر (كيرا) بشكل مقدس، وعندما يمر أحد الغرباء الذين تحمل سماتهم ملامح (دار صباح) يتهامس شعب الوادي (صلندون كوَي) كتعبير بذئ ضد الغرباء، الذين يرتبطون بذكرى ذلك الفارس البعيد! صار محور أحلامهم الآن مبهماً! مثل ذلك الشعور الذي طوَّق آدمو.. شعور غير واضح الملامح، موغل في الغموض!
شعور يستثيره فيهم ما يتناهى إلى مسامعهم، عن طرق الأسفلت والجسور المعلقة على النيل، ودور السينما والثياب الفاخرة والمصانع والبنايات العالية، والمشافي والمدارس والكهرباء، والمياه التي تجري عبر أنابيب رفيعة.. و.. و... ويشتعل هذا الإحساس الغامض إلى أقصى حد، خريفا على وجه الخصوص، عندما يُعزل شعب الوادي تماماً عن الشعوب التي حوله!

فالوديان تمتلئ عن آخرها بالمياه الهادرة، المنحدرة من أعالي تبستي، ومجاري الصحراء الافريقية الكبرى، فيصبح الطريق مخاطرة غير مأمونة العواقب، إذ تنتشر الأوبئة والأمراض التاريخية، التي انقرضت في (قِبَلْ الأرض الأربعة) إلا هنا!

وينتشر البعوض والأمراض الجنسية، ويفقد الأطفال السوائل فلا تجدي أملاح التروية، التي وهبتها اليونسيف للحكومة نفعاً!

حتى هذه الأملاح كانوا يشترونها من موظفي الحكومة والسوق السوداء!

ذات هذا الإحساس يشتعل بشكل يومي بدرجات متفاوتة، خاصة عندما تأتي اللواري والشاحنات الكبيرة، لتحمل خيرات شعب الوادى من (أسواق أم دورور) إلى تلك المستعمَرَّة البعيدة، المحاطة بالجبال في قلب دار صباح، حيث تشرق شمس القيامة!

ورغم كل ذلك، لم يكن شعب الوادي قادراً على تحديد التفاصيل الأساسية، التي تثير هذا الشعور بدقة! ومع ذلك ظلت همومه الغامضة، تدور حول مثل هذه الأشياء، التي لايستطيع أن يعبر عنها بقدر مايحسها!

وفي المنتهى، أبداً يبقى مارتجلو وطائره الذي يحترق فيموت فيحيا، أكثر عنفواناً! متنامياً في دواخلهم، وشاهقاً يغطي قرص الشمس!

يحدقون فيه كأنهم يلتمسون تحقيق أحلامهم الخفية، التي لا يعرفها أحد سواه!..

"مارتجلو.. مارتجلو سيد بيت كل ناس هنا".. هكذا يطالعونك وهم يحكون لك عن مارتجلو (بخصيته الثالثة مكان القلب تماماً).. وكيف أصبح جزءاً من جغرافيا وواقع المكان، قبل أن يبدأ زحف كسوفرو من بلاده القاحلة، حاملاً في ركابه ذلك الفارس المعقور الذي تقدمه بثلاث ليال ونهار!

أدهشت المعارف الميتافيزيقية الواسعة لشعب الوادي، كسوفرو.. ووقعت بلادهم الخصبة منه موقع القلب، فقرر أن يبسط سلطانه عليها! هكذا مثل كل الذين ليس لهم آباء، وأكثر شهرة عبر التاريخ!..

لكن تمرد شعب الوادي أقلق كسوفرو وقض مضجعه، إلى أن أشار إليه ذلك الفارس القادم من شمال أفريقيا، أن يأمر شعبه بإنتزاع جبل مارتجلو من جذوره، لأنه الفحل الرمز الذي يستمد شعب الوادي من عروقه وشلالاته الهادرة، الصمود والمقاومة!

لم تكن هذه الفكرة الخبيثة، نتاج ذكاء ذلك الفارس المعقور، فقد أخبرته حبيبته (الكيرا) بذلك بعد أن إستشارت العرَّافة الحيزَّبون الميرم، الأشد خبثاً ودهاءاً من إبن آوي!

وأمر كوسوفرو شعبه الغازي بنقل الجبل الفحل مارتجلو، وضمه الى أخوته من جبال (مُرَّة) التي تحيط بالقصر الذي إبتناه على بعد ليلة من جبل (الدوماي) ربما خطر لكوسوفرو أنه بذلك سيستمد القوة من مارتجلو، وسيهابه شعبه أكثر!

وبدأ شعب كسوفرو ينبش في جذور مارتجلو، وإثر كل نبشة

كان طائر النار ينطلق من فجاج مارتجلو، فيساقط الحمم والصخور الملتهبة!

وأخذ شعب كسوفرو آلات من الأراضي القاحلة، يتململ ويتذمر ويتناقص، حتى أعلن تمرده جهارا، فأسقط في يد كسوفرو!

عندها سرَّبت العرَّافة الحيزبون للفارس المعقور، عبر حبيبته (الكيرا) أن على السلطان كي يفرض سطوته على جنده المتمردين، الاعلان بأنه لن يمتطى الجياد مثل العوام، ويأمر بإحضار (تيتل) ليكون مطيته!

وإعتقد كسوفرو أن ذلك سيعيد له هيبته، ويجعل تنفيذ أمر نقل الجبل مارتجلو إلى جوار (مُرَّة) ليستمد منه قوته الملكية المقدسة! أمراً قاطعاً مطاعاً! ورغم إحساس كسوفرو بخطورة ما سيقدم عليه، قرر أن يغامر!

لم يكن أمامه سوى أحد خيارين:

أن يتولى قيادة شعب الوادي وشعبه شخص غيره، أو أن يخوض المغامرة مثل أي قائد متهور ليموت! وكان الأمر سيان، حياً كالميت أومياتاً بشكل بطولي مجيد، يتلائم وتاريخ الذين لا آباء لهم!

وركب كسوفرو (التيتل) الذي يرعى أسفل الجبل الثاني لمارتجلو ذي الجبال الأربعة المترادفة!

وبعد أن ربط خصيان القصر وقنانه، كسوفرو على ظهر التيتل بجلد البقر النيئ، عزفت الجواري والقيان الطبول، وشرب شعب الوادي من (دلالينق البقو) كما لم يشرب من قبل، ورقص الجميع (الكسوك وإبيرة ودرَّت).

وصار هذا اليوم إحتفالاً شهرياً عند اكتمال كل قمر! –لم يتوقف إلا هذه المرَّة!– منذ إنطلاق التيتل المشبَّع (التَرْيَانْ) بالعشب المروي من عروق مارتجلو!

ركض التيتل فى إحتفال بهيج، منسرباً في الوديان والغابات الممتدة بأحراشها الشوكية القاسية، وتمزَّق جسد كسوفرو على الأشجار إلى أشلاء، وتحققت تلك النبوءة الخفيَّة، التي أسرَّت بها الحيزَّبون (ميرم) لكيرا ذات صفاء مسترخٍ ورخو.. في خدر لذيذ مسكون بمفعول (البقو) وآثار رائحة الغرام، التي كانت لاتزال تتضوع من حروف كلمة (كيرا) كلما ذكر إسمها! تماماً كما في ذلك المساء الغسقي، قبل أن تطأ قدميها دار الحيزبون الميرم!

وكرَّست تلك الحادثة في أعماق شعب الوادي، أن أسرة كيرا سليلة للوجد الإلهي، وتنتمي لروح ذلك النبي السرِّي (مارتجلو) الذي نُذر لرعاية إرث الأجداد!

كانت العرَّافة قد أخذت في ذلك اليوم ـــالذى تمزق فيه جسد كسوفروـــ تحكي ذات حكايتها القديمة، المألوفة عن مارتجلو، الذي فوجئ به الأجداد منتصباً ذات صباح قزحي، على شفة الوادي، محيطاً برسغ القرية الوادعة إحاطة الإسورة!

وكانوا يسمعون لها بذات اللهفة، مثل كل مرَّة، كأنهم يسمعون لأول مرَّة، وهي تستلذ الحكاية فتحذف وتضيف، وتتعجن في صوت مولع بالايحاء والغموض، عن ذلك الفارِّس والنَّبي السرِّى، الذى يعرف سر الأفلاك وحركة الأجرَّام وسرائر النفوس، ومواقيت المطر واتجاهات الطريق إلى دار صباح!

مارتجلو!.. لم يكن عرَّافاً، بل نبياً، سحرياً، آسراً.. يغوص بعينيه النفاذتين إلى أقصى تفاصيل شعبه، يحيطهم بسحرِّه المخملِّي، المنبعث أقصى تفاصيل الوَّعي النَبوِّي الشريف!..

كان مارتجلو برائحة الأعشاب البرِّية التي تحاصره كهالة، وجسمه الأسمر المديد، المُحَلَّى بجلد النمر والأسد والأصلّة وريش النَّعام وأياقين العاج وحجر الياقوت الكريم، وعظام جماجم الأعداء والقرَّع السحرِّي!..

كان مارتجلو الأشهر، لكن لا أحد يستطيع الجزم بأن لا أباً له! فقد أتى طفلاً من مكان ما، ومُنذ أتى أخذ مكانه كقديس ومحارب، بل مضى به الحال إلى أن صار يؤدي مهام (الشرتايات والدماليج) والعُمَد، وكان يصطاد الأرانب دون (سفروك) ويهزِّم (بني جلول) وحده في المعارك الضارِّية دون أن يستخدم (حربته) العاجية المقدسة، التي صنع مقبضها من مزيج عصا سليمان الحكيم وحفيده الكليم موسى!

وكان رسول شعب الوادي للشعوب المجاورة ومهندس علاقات الجوار والتجارة والمصاهرة السياسية، بل لم تكن الذكاة لشعب الحرَّمين الفقير، والكساوَّى حتى وقف متأخر، تُرسل إلى البيت المقدس البعيد عبر درب الأربعين، إلا بعد أن يُقدِّم السلطان قرباناً لمارتجلو الجبل!

وفوق كل ذلك كان مارتجلو محباً للسلام، كوني الرؤية، لكن لم يكن هناك من يستوعيه تماماً، فقد سلبت الدهشة، شعب الوادي لبه، وعلاقات التفاصيل وكيفية التفكير وتحديد الهدف!

ومنذ طفولة مارتجلو، لم يستطع أحد أن يحدد إن كان ذكراً أم أنثى أم الاثنين معاً؟ أم كان طائراً ملوناً!

لكن الجميع اتفقوا في ذلك الوقت على تسميته (بالقديس ذو الخصية الثالثة مكان القلب تماماً، الطائر الجبلي مارتجلو)..

ولم يستطع أحد أن يحدد كيف ومتى، تحول مارتجلو الى جبل!؟

لكن بعض الروايات التي، لم تروِّها الحيزَّبون ميرم، أكدت أنه في الليالي موغلة الظلمة، كان مارتجلو يُرَّى كطائر ضخم يحتوي الجبل بجناحيه، ومشتعلاً يرفرف في سماء الوادي، متطايرة منه ألسنة اللهب، إلى أن يذوي شيئاً فشيئاً متحولاً إلى رماد يملأ الوادي والجناين والحقول، ويبقى الجبل شاهقاً يغطي قرص الشمس عند مشارف كل صباح!
كما يطيب للميرم أن تكرر في عُهر، وهي تتحسس بين فخذيها، أن الفتيات اللائي يصحين من النوم، فيجدون أن بكارتهن قد فضت، وفقدن عذريتهن على نحو غامض ومريب، إنما أختارهن مارتجلو قرباناً للخصب والنماء!

قال عادل:
"أختك لا زالت تسأل عنك بالحاح.. لازم ترجع!.. لا أحد لك هنا غيرها، بيت أختك هو القاعدة التى تنطلق منها إلى الأمام ثم أنك لن تجد أحداً يتحمّل غرابة أطوارك مثلها!"
"لن أعود.. ثم من سمح لك بالتدخل في شؤوني الخاصة.. هل شكوت لك؟!"
كنت مصراً ومتوتراً ونفسي تعاف نفسي، أمهلها قليلاً، أتوتر كثيراً أصبح ضد وضد ضد!
"سلوى تبحث عنك.. إلتقت بأختك عندما حضرت إلى الجامعة تسأل عنك!"
"وبعدين؟"
"لا تنظر لأختك كشخص مؤذي، بل كشخص يخاف عليك.. إنها علاقة دم يا رجل!"
"كفاااااية!"
الوطن بوابة مشرّعة للقادمين والخارجين والتائهين، الوطن مظلة للائي ينتظرن عشاقهن ملء الأشواق، والباحثين عن الدفء، والذين يتقون المطر والبرد والأشواق حيناً من الدهر؟!..
الوطن هاجس وجريمة وإستفهام؟! صفا، إنتباه! ووقعت من الهدهد بلد، كما قال خيري، وكما أقول الوطن إنقسام على النقيض وحدود مغلقة، تآكلت ساحاتها.. صفا، إنتباه!.. والوطن حقيبة، ومدخل للخروج ونقيض للآخر! توقفت الخطوات وسكنت حركة الطابور الصباحي وبدأ جدول الحصص!
إبن الأخت الصغير يبري قلمه الرصاص، لا ملامح للحضور، تضيع كل المعالم وتنطمس بين رنين الجرَّس وإحتضان الخال!
ودعته عند بوابة الفصل ومشيت، كان شيئ ما يشدني نحو طريق معتاد، وسؤاله المألوف يتكرر في الذاكرة:
"حتمشى البيت ياخالو؟"
"نعم ياخالو.. حأمشى من دربي ده!"
وقدماي تتمددان على الطريق، كدمعتين تلامسان القلب!

شيئاً فشيئاً تغيب ملامح (المارتجلو) وتتسرب اللَّوحة (شهاب أبوعلي) فيتلاشى صوت جَدِّته في صوت الراديو: (... وقد ذكر مراسلونا، أن ثمة جبل ضخم انتصب بشكل مفاجئ، فى منطقة القرن الأفريقي، و تؤكد مصادرنا، أنه ربما للتحولات الكونية، علاقة بما يحدث في منطقة الشرق الأوسط، ووفقاً لتقارير المراصد، أن ثمة ظاهرة مماثلة حدثت فى منطقة الخليج، إذ بدأ يتكون جسم صخري، له بعض خصائص (اللافا) يشبه ذلك الجسم الذي سبق تناميه (الإجتياح العراقي للكويت، كما أفادتنا..)...

أغلق (شهاب أبو علي) جهاز الراديو بتأفف، وأخذ يقلب صفحات الصحف السودانية والعربية المتراكمة أمامه. عثر على لوحة نَوَّآرْ بين تلافيفها.. تمعنها وهو يضعها جانباً فى عناية فائقة.

حاصرته رغبة غامضة لم يستكنه فحواها، فأخذ يمر بعينيه الكابيتين على العناوين البارزة، استوقفه أحد مانشيتات (الشارع السياسى/ 25/6/1998م):

أكثر من 4000 طالباً، يفقدون إستمارات التقديم للجامعات و المعاهد العليا - مكتب القبول ينفى وصول الاستمارات، وخطاب عاجل من الوحدة العسكرية- الطلاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

القيادةالعامة للقوات المسلحة

الكتيبة الرابعة/ لواء إدارة القيادة العامة الرقم/ ق ع/ ل ك/ 50/ج/1/206

التاريخ/ 27/صفر /1418هـ

السيد/ منسق الشئون الأكاديمية بوزارة التربية والتعليم، مرسل لسيادتكم كشوفة، بأسماء مجندى الخدمة الوطنية، الذين ينتسبون لهذا الطرف، والذين فقدت استماراتهم. لكريم عنايتكم بإجراء اللازم.

وجزاكم الله خيراً

مرفقات: كشوفة

ختم إدارة القيادة العامة.

تحته مباشرة قرأ مانشيتا عريضا:

الطلاب: يرفضون التقديم للأماكن الشاغرة، ويطالبون بإلحاقهم بالكليات فوراً!

هزّ ابوعلي رأسه وهو يلقى بالصحيفة التي في يده، على الأرض. فيما طيف (نَوَّآرْ) يداهمه بكل أشواق السنين الذائبة في حضن المدى! عايش جرحه الأزلي، وهو يرتب لذاكرته من بريق الضوء الخافت، المتسلل عبر النافذة، سكة لفوضاه التي لاتلين لها قناة!

.. و سحب لوّحة (نَوَّآرْ).. أدخلها فى الحقيبة (الهاندباك) بحرص. حاصرته رغبة ما، دون هدف محدد.. ذات الرغبة التي تغولته منذ الصباح الباكر!..

كانت نَوَّآرْ وحكاوي (الجَدَّة) عن "المارتجلو" وكان المساء يلقي بخطواته المتسارعة، على شُرفة القلب.. ورويداً، رويداً تتسرب اللوحة (شهاب أبوعلى)، تتداخل مع صوت (الجَدَّة) المتسحب ببطء!

تحاصره طيوف لوجوه يعرفها ولا يعرفها: (الكلَّس) و(عتَّام) و(سلوى).. قال صلاح:

"فى الليلة التي اختفى فيها (الكلَّس) في الصحراء، أنجبت زوجته تؤام.. عتَّام وسلوى..) كان عتَّام، جميلاً، أمرداً، أقرَّب للجمال منه للوسامة، وكانت سلوىٰ خُلاسية مثله وأقرب للوسامة منها إلى الجمال، لولا الخال الذى يتوسط نونتها فيضفي عليها أنوثة وسحراً غامضين!

ذكرت القابلة التي أخرجتهما من غياهب رحم أمهما للنور، أن عتَّام يخلو من أعضاء الذُّكُورَّة، لكن ليس ثمة علامات أنوثة ما، ولم تصرح على الإطلاق عن تفاصيل سلوىٰ، حتى وهي تغالب النّزع الأخير!"

منذ الطفولة الباكرة لعتَّام لم يبدِ إهتماماً بشقاوة الأطفال! كان ميالاً للوحدة، ويهوىٰ ألعاب الدفاع عن النفس بقبضة فارغة، ولازمته هذه الهوّاية لزمن طويل، إلى أن أجادها فى أمريكا فترة دراسته للقانون هناك.

الأخبار التي تواترت، كانت تحكي عنه كمعلم بارز في عالم العصابات!.. إذ كان الأخطر بين كل المقاتلين..
كان عتَّام منذ طفولته لا يحب رؤية الدِّماء، حتى أنه لايذبح الكائنات الأليفة، مثل الحمام –إذا إقتضى الأمر على الاطلاق!– ولم يتنازل عن هذا المبدأ أبداً، فلم يُتهم بجريمة قتل، رغم ممارسته واسعة النطاق للعنف! –ومع ذلك طلبت الجهات الفدرالية الأمنية، في الولايات المتحدة الامريكية (عتَّام) حياً أو ميتاً– فقد أقض مضجعها، وأقلقها بنشاطه الدائم، فهرَّب إلى القاهرة، مما أزعج المصريين الذين لاحقوة بشراسة، فهرَّب إلى بلاده!
كان عتَّام يبتكر مختلف أنواع الحِيَّل، ويمارس النَّصب والإحتيال دون وجل!.. وينفذ عمليات خطيرَّة لصالح منظمات سرِّية، تزعم الثورِّية والتحرر!
عشقت شقيقته سلوىٰ منذ طفولتها الباكرَّة الفنون الجميلة، وبرعت في الرَّسم.. كانت ساهمة دوماً، كأنها تترقب المجهول، وكلما هاجمتها لحظة من لحظات الغياب عن الشرود، والولوج إلى الذَّاكرة، تسافر إلى مدينة ما، لتقيم معرضاً للوحاتها هنا أو هناك!
كانت لكل لوحاتها علاقة بوالدها الذي ابتلعته الصحراء، وبنَوَّآرْ التي تحاصر أحلامها، وبعتَّام الذي لايريد أن يَحُط رحاله ويرتاح.. وبها وهي تنتظر (أبوعلي).. فترحل في فضاءات الغياب والانتظار!
أكثرما كان يؤرقها، الوحدة القاتلة، التي تعيشها فى بيتها الفارِّه، أعلا المدينة.. ثَمَّة حنين جارف يحاصرها من حين لآخر.. للأزقة والشوارع الضيقة، وأمنية ما، مجهولة المثوىٰ، بلحظة تذوب فيها مع حبات المطر، مع شخص تراه في حلم يتكرر كل ليلة، شخص ليس كحاج عباس!

تردد (أبوعلي) في أن تكون هي ذاتها فتاة اللوحة، ذات الجسد الأبنوسي المنتصب بشموخ، والمنحنى عند الرأس ذي الشعر الأجعد، الذي تتدلى ضفائره بغنج.
كانت يدها اليُمنىٰ المتقوسة تسند جرة الفخار، التي تتكئ على الكتف بدلال.. ملامح الوجه البَّرى (الولوف) رغم تمرده، والنَّهدين المتوفزين بقلق، بحلميتهما السمراوتين، والخصر الدقيق، المنتهي بعقد من الخرَّز الملوَّن، تتدلى منه (سعفات) متفرقات حتى الفخذين الدائريين!
عنقها المرمرِّى، المتحفز بقلادته العاجية بدى نافراً، كأنه: يتوقع مقصلة تمتد إليه من شجرَّة (الحرَّاز) النَّاشفة، والتي التفتت إليها الفتاة تواجهها، بصدرِّها النَّافر؛ وعنقها الكبرياء الحرَّون.
كانت اللَّوحة تماماً كما توصف (الكيرا) وكما هي ذات حبيبته نَوَّاَرْ.. (نَوَّاَرْ) الصَّغِيرَّة التي وجدت فى زحمة السكة الحديد، والقطار الآت من الغرب، يُغادر محطته الأخيرة، ولا أحد يقترب منها –هذي مدينة تخلو من المؤمنين!– كان القطار يتحرك وعيناها، كأنهما ثبتتا على السكة الحديد، وعجلات القطار!..
يدها التي تُشير إلى نقطة مجهولة في المحطة؛ تصلبت على الهواء؛ كأنها فارقت الحياة وبات من الصعب، أن تعود سيرتها الأولى.. والقطاريتبدد في المدى!
كانت في مثل سن شهاب أبوعلى.. أخذوها وعاشت معهم فى الحي، وذات فيضان للنيل (حَتَلَ بها الجَاسِر)..
تأوه شهاب أبوعلي ورائحة نَوَّاَرْ تتسرب الذَّاكرة فتملأ خياشيمه.. بعضهم أشاع أنها تاهت في الصَّحراء تتبع (غنَّم إبليس) ولم (يَحْتَلْ) بها (الجاسر)..
كان يشتم في نَوَّار، حكاوي جَدَّته عن الكيرا!.. وحده الذي كان يعلم أن (الجاسر) لم (يَحْتَلْ) بنَوَّاَرْ.. وأنها لم تته في الصحراء.. قبل أن تختفي كالحُلُم بأيام، قالت باقتضاب وعيناها ترحلان إلى البعيد:

(سأرحل).
وظنها تعبث..
كانت عينا أبوعلي لا تزالان تتشربان اللَّوحة. تردد أن تكون هي فتاة اللوحة، بوجهها الطفولي. العارِّية إلا من ورقة التوت، التي يتدلى الخرَّز من أطرافها.
كانت في اللّوحة تتوسط أغصاناً خضراء، تمتد إلى الصّخور المتناثرة بين الأشجار، التي تطل بعيداً عنها، مساجد عرفها أهل (سنار القديمة) لأول مرَّة!..
عيناها ببريقهما النَّاشز، والجمر الملتهب من سُرَّتها حتى سُرَّة الجدار، الذي يستند عليه. في الزَّاوية الأخرى للَوحة، بدى أُناسٌ متحلقين حول النَّار، مشحونين بها، يُلقمونها (الحرَّاز).. فيزداد أجيجها، فيرتلون صلواتهم الحميمِّيَّة!
كان يسمع التراتيل تتسرب من اللوحة، في إيقاع حميم.. تساءل:
"أتُرى نَمَّت تلك النُّطفة، المحملَّة بنداء البابور وإيقاع الجدول.. أم أن رَّحِم نَوَّارْ كان مقبرةً للغَّازي، المُحمَّل بالقلق و التوتر، والألق؟!"..
تلَّمس أبوعلي تلافيف الذَّاكِرَّة، يثير في قاعها ملامح الوجه المنسي، ليس منسباً تماماً –فقد عَلِّقَ بعنفوان الجُرح البَرِّي، واحتل ممالكاً بكاملها، تمتد من الذّاكرة إلى أقصى الوريد.. اللوَّحة الجسد الحي.. صوت (الجَدَّة) المنساب في تعثر، المسكون بغبار السنوات العجاف.. السنوات المقموعة!..

الآن.. نَوَّارْ، في الواقع كانت طفلة، تائهة (كالقديسة بخيتة) التي باعها تجار الرَّقيق، فى سوق (الأُبيض) وأصبحت (سانتا ماريا) المبجلة فى إيطاليا! كانت تائهة مثلها تماماً، لكن مع سبق الإصرار والترصد. رَّحَلَ عَنّها القطار حاملاً أهلها إلى مدن تجيد الخوف! ولا تتميز بطعمٍ أو لوّن أو رائحة!

وعلىٰ اللوّحة تتوسط بيرقاً وجرح وثلاث نجمات ملوّنات، ومثلثاً حائل السواد، كالمدخنة العتيقة في زاوية الجدار..
آه، نَوَّارْ، زرع (تاج الدين البهاري) شفقه اللامتناهي.. إستنبت الحَل والترّحال والحلول، وتجلى إيقاع طبوله في (سنارالقديمة) فصحى أهل (تمبكتو) البعيدة، تمدد.. تمدد.. تمدد، ولم يتبق من المدد سوى طعم الغُبّار، ورائحة العرَّق الدبق، النَّاشِز في تلك الأُمسية البعيدة، المحفوفة بالجمر واللهيب!
النخلة، المناظرة للحرَّاز، المطل على الجدول أعلا الرابية. حين رآها أبوعلي في تلك السنوات، أحسَّ بأوصَّال اللَّوحة التي لم تتخلَق –حينها– تَسرِّي في دّمه، بكل عنف تلك الرائحة، ووجد ذلك الحُب المثير النَّافذ!
إختزنتها خلاياه شهيقاً زفيراً.. تتنفسُ ملامحها، ملتفةً برائحة حرَّازةً في القلب، عجز (البهاري) عن تدجينها تماماً –إتكأ عندها المهدي، عاندته –هكذا قالت جَدَّتي– كان يَغْوِّيْ فكرةً ما– أضافت دون أنْ تُغَّيِّرْ ملامحها!
ملامح لجسد ممزَّق الأشلاء تتمترس عليّ نَوَّارْ –آه، نَوَّارْ صديقة العصَّافير والطيور المهاجرَّة. التي لاتفتأ تبحث عن وطن جميل، وفحل لا يمل المشي عبء قدميه المتورمين، أخذهما وَهْناً علىٰ وَهْنٍ، رَّهق السباسبِ والوِّهادْ!

من أيْ لوزة قطنٍ تفتقت في ذلك المساء الحنين! ومن أيُّ (شِق) في الأرض، إنبعثت تحاصرك هذي الروائح، بالصندل والخُمرَّة وبوخة الطَلِح والشَّاف!

لايزال القوادون يبحثون عن أراضٍ لم تغزُّها روائحك.. لا يزالون يبحثون يا نَوَّارْ عن أرحام، يعبأونَّها بالشفق!.. حرَّازةً في القلب أنتِ يَا نَوَّارْ، وليست ثمّة وجوهٍ ملساء تخرج عن غياهب ذكرياتك، تمارس عُهرَّها العلَنِّىْ!
كان الهواء بارداً ذلك المساء، وظل الحرَّازة يتمدد داخلنا. نراقب الغَنَّم المبعثرَّة أسفل الرابية، علىٰ مبعدة من (قيف) النَّهر، والهواء البارد..
ذاك المساء، ونَوَّارْ في ثوبها الفضفاض –تلتاع الرِّيح ولاتلتاع– تنحسر القنافذ عن سروالها أب (تكة)!
خطط أبوعلي الأرض أمامه:
"لا، لست امرؤ القيس، ولا أحب لعبات الملوك وحرِّيم القصر!
"من منا يبدأ أولاً يا نَوَّارْ؟!"
وتلاقت أيدينا في ذات اللحظة، ونحن نضع أحجار (السيجة) في مربعاتها الصَغِّيرَة.. تشابكت أصابعنا وظللنا صامتين.. كانت الرِّيح تشعل ذرَّات الجمر، في الأرض القردود.. تتوغل الخلايا وتمتد إلى الخاطر.. وصوتك يرتخي، يأتي متنهداً ومنهداً كقلوع الشاطئ الغربى للنيل!.. لم يبارح (عبدالقيوم) بوابته أبداً، كان (يحملق) فينا يا نَوَّارْ.. آه، لم تعد طوابي أم درمان كما كانت!
"لنتزوج!"
ولم أكن بأقل وهجا منك أو إنصهار! حقاً كنا ننتشر على الهواء البارد المبتل بندى الفجر، بلل الجرف، خرير الجدول المجنون!.. صوت الماء يتدفق من البابور، ممتزجا في ثغاء شاتك الحمقاء، تقفز.. تلتقط عشبة رماها الموج منشرحا، على القيف!
تحسس أبوعلي عطسه المخملي، توشحت دواخله بمهرجان من الدَّم و مطر من الرصاص.. خرج.. مشى، مشى.. تاه بعيداً عن سنار القديمة، في الصحراء الموشحة بالغابات وآلهة الغنوص.. سخرمن (محمد عبد الحى وعلى المك) وأمدرمان، على منعرَّج اللوَّى تناجي و(محمد الواثق)، يلقي قصيدة عصماء يهجوها!
أطل أبوعلي مع الصحراء داخله، على البحر.. ليس ثمة فارس قطع الفيافي والغفار براحلته، يجدد أكاذيب ألف ليلة، و تداعيات (ذى يزن)!..
إنتظر أبوعلي ليكون آخر الراكبين.. كان كل النّاس إثنين، إثنين.. إلاهو ونَوَّارْ كلا واحدا!..

لن يقترب!
هكذا قرر شهاب أبوعلي. ثم غيَّرَّ رأيه. اقترب!.. فيما كانت نَوَّارْ قد إختفت خلف شجرة الحرَّاز، تداعب قطة، لايهم أمرها أحد!.. بعضهم أشاع أنها لصاحب الكافتريا، فتقدم منه:
"أهى لك؟!"

ولم يشأ صاحب الكافتريا أن يرد.. اعتقده كحال الطلبة، يبحث عن مدخل خبيث للحوار!.. يفاوض لأجل وجبة، تئد حدة الجوع التي تتملكه –آه، نَوَّارْ ندير الحوَّار لأجل (لُقمة)؟!.. سوء التغذّية لايرحم و الجوع كافر، والدولة لا تستحي!– ونحن.. نحن، من هم؟! –سنستمر في مشروعنا حتى لوكلّفنا ذلك موت ثُلُثي الشعب– تلوث الجو بصوت الراديو المشروخ، والذى إنبعثت منه روائح الأجساد البشرِّيَة النافقة في الجنوب، تنتشر في فضاء المكان!
كالعادة لم تجد المفاوضات لإيقاف هذه الحرب اللعينة! –اللعنة على هؤلاء الملتحين يا نَوَّارْ.. اللعنة!– حينها تلمس شهاب أبوعلي أنفه، فلم يجده!

غرفة الداخلية الكئيبة، يتقطر منها الحزن.. الصَّرصور الصَّغيرعلى الأرض الخرِّبة، برطوبتها العالية، يبحث عن فتات يواري به سوأة الأيام، كما نملة سُليمان!..
ناله الجوع والإرهاق، أضناه البحث، تمدد منكفئاً وهو يلفظ أنفاسه الآخيرة!
(القَمَّرة) التي بداخل شهاب أبوعلى (خنَّقَتْ)، طرق أهالي سنار القديمة الطبول، وهم يحرقون وجوه الشعراء المجاذيب، فى حديقة تنفس اللَّوحة، إستلقت اللّوحه ونامت (القَمرَّة) حيث الحرَّازة، التي تطل على الجدول.. تطل على كل المكان الفارغ من نَوَّارْ..
تركت الجرذان و الصَّراصير مواقعها لترحل في دمه! تلمَّسَ أبوعلي أطرافه، لم يجدها!

ترك ظله على الحائط، أصبح عارياً! ومضى زاحفاً!

(سلوىٰ) ياجُرح دمي، يا شبه نَوَّارْ.. (سلوى) يا قلب النَّار.. أُغنيك، لا.. أُغنيك، آه.. الآن، الآن؟!

كان الطريق ينكفئ في شرايين شهاب والأسفلت ينام على السرَّاب الليلي، و صوت العربات التي تعبر شارع الجامعة، لم تتمكن من إبتلاع صوت المغنِّي البعيد!
رفع حزام بنطاله بأسنانه، وشدَّه أكثر على البطن!.. كان المغنِّى قد أنهى فاصله الأول، والمدعوين لم يتركوا شيئاً، ليس ثمَّة كلب ينظف المكان غيرك يا أبوعلي! والمكان نظيف تماماً، ليس بحاجة لمن ينظفه!
بدأ المغنِّى فاصله الثاني، لم يكن شهاب أبوعلي يسمع شيئاً، كان قد فقد أذنيه!..

القمرة اللوحة/ الجسد الحى اللذان رآهما يتقاطعان في ذاكرته، على إيقاع الحراز حين تمر عبره الريح، ظله، يتهيجان الآن في داخله، وظله لايزال معلقاً على مشجب الملابس! تسآل:
"أغياب عن الذَّاكرَّة، أم ذاكرة للغياب؟!"

حاول أن يُعِد لنفسه حلماً بديلاً، حيث هو ليس هو.. هو الحُلُم الذي يتقاطع بعيداً على اللوحة، التي أرتسمت في الذَّاكرَّة، وتبدت بعد سنوات عن أُنثى تحمل قسماتها!.. تلك سلوى تتوَّغل عميقا في الدَّم، وترحل بعيداً في الوريد!
حاول أن يأخذ حصته من اللَّوحة، فكانت نَوَّارْ تتبدى عن مدينة ساحرة (برواكيبها) وأسواقها الشعبية التاريخية، بباعتها المتجولين ومخموريها الرائعين! مدينة غامضة ومغامرة بلصوصها وقطاع طرقها وشفتتها، الذين بوعي (الهمباتة) قال عادل:
"أعطني وطن لأعطيه الضريبة!"
ثم أضاف:
"حيث أننا في أي مكان هنا، فإِننا في القاع!"
وحمل دفاتره ومضى مغتربا في ذاته!
سَالَت ذَّاكرَّة شهاب أبوعلي، تملأ فراغات المكان المخبأ في تفاصيل الوجوه الملساء، النَّاعمة والشاحبَّة، المتكوِّمة.. المتعثِّرَة والمبعثَّرَة..
إمتلأ الفرَّاغ بصوت صامت غير مسموع!.. كان هتافاً سرِّياً، محزوماً من سُرَّته بحزام البنطال المهترئ.. وكان فم شهاب يختبئ في مكان ما!..
لم يستطيع أن يسأل:
"هل رأى أحدكم فمي؟!"

سأل الفنانة التشكيلية:
"ما إسم هذه اللوحه؟!"
فأجابت في لا مبالاة:
"نَوَّارْ.. نَوَّارْ ذَّاكرَّة الحرَّاز البَرِّي"
"ولماذا لا تكون ذَّاكرَّةً للحرَّاز المقدس؟!"
"أتريدها كذلك يا أبوعلي؟!"
"أبوعلي؟!.. كيف عرفت اسمي؟!"
"أنت تعيش في دمي.. أنت دائماُ معي يا حبيبي!"

كان أبوعلي ينتظر متأَّكلا بالفضول، والصّدأ يتفتت عن وجه نَوَّارْ العرّب (طلقوا) البهائم في (الجروف).. البحر (نزل).. و نَوَّارْ تجلس قربه (سارحل!) ولم يهتم!..
فاض النيل بعدها بشكل مفاجئ، منتهكاً قوانين المَّد والجذر!.. قالوا: (البحر بشيل عواموا!) (حَتَّل) بها الجاسر.. (عِرق البحر) مافي زولاً بقاومو، خلّها (المرّا).. الجاسر غدار!.. وسلوى كانت تعلم الحقيقة.. (الشّاف) تباريح الطلح في النّار، شافني مرّقت من عندك ضرير أرجينى يا نَوَّارْ..).. قالت:
"سأرحل!"
وبحث عنها رجال الإنقاذ البحري، و(السَّمَّاكة) سحابة نهار وضباب ليلة دون جدوى، فأدرك أبوعلي أن ليس ثمّة أمل، قالت سترحل، ولم يُعِّرْ الأمر إهتماماً.. لم يصدق أن تتركه للوحدة و الشّوق والعذاب!..

غاص أبوعلى عميقاً في تفاصيل اللَّوحة قبل أن يمضي حزينا، بائساً!.. أصبح منذها غير موجود، إلا فى ثنايا الخواطر!..

لم تكن (كِيرَا) مثل (نَوَّارْ) أو سلوى، فكيرا سليلة للسلاطين والملوك!.. عندما تتكلم يحلق (الوِّزين) و(الغارنوق) مظللاً أرض الوادي، وعندما ترقص في الاحتفالات التي تؤمها كل الشعوب العاشقة، تسلب أولاد القبائل لبهم، وتنشب الحروب، ويموت فى ذلك اليوم ألف فارس!
جمالها البَّري، البرئ، حطم أفئدة شباب الوادي.
لم تكن كيرا تبالي بالاعجاب الذي تراه في عيونهم، كانت كنَوَّارْ، كأنها تنتظر عاشقاً ما، من بلاد ما، لاشئ فيها غير العشق والعشاق!
إلى أن أتى ذلك الفتى ذو الساق الواحدة، على ظهر ناقته الشهباء، من شمال إفريقيا، متقدماً الزحف (الكسوفري) بثلاث ليال ونهار!
حينها لم يكن الغَسَّق قد ألقى بظلاله التفاحية على أهداب الوادي المحاصر بجواري كيرا، والتي كانت قد توستطهن وهى تستحم!
أناخ الفارس المعقور راحلته الشهباء خلف قوز (الدُّخن) ومستنداً على رمحه مضى في قفزات صغيرة.. اختبأ عند دغل في شفة الوادي، وأخذ يتلصص على جسد كيرا، في انديا‌ح المياء!..
كان مسحوراً ومأخوذا ً بها، هو الذي خبرته صحارى شمال إفريقيا بسباسبها ووهادها، وأدمن حب النساء الهلاليات والعامريات، اللاتي لطالما خاض في سبيلهن المعارك الضروسة، والحروب التي تلد آخريات! حتى عُقرت ساقه!
لكن لم يسحر كما الآن!
كان جمال الكيرا نبوياً، برياً، بريئاً وساحراً.. وناعماً كالحرير.. فاتناً بالتفافاته وتكوراته الحميمة، التي تكشف عن تمرد لذيذ، وعنفوان أقوى من شلالات مارتجلو، ساورا، قلول وسوني التي تخاصر الوادي.
تقلدت الكيرا وصوحيباتها حلِّيهن الخرَّزية والعاجية وسوَّين من (السعف) و(الودع) و(الأصداف) حول خصورهن، وتعطرّن بالرَّيحان البَّرِّى ومضين يتخللن (جناين الموالح) ميممات شطر (الحلة)!
وفي منتصف الدَّرب الذي نهضت على ضفتيه الأشجار والزروع، برز ذلك الفارس المعقور للكيرا، دهشت وصويحباتها للحظة كأنهن شاهدن نفراً من الجِّن!
ومن ثم جرَّى الحديث متسائلاً، ثم مستفسراً، فمستجياً وتحوَّل إلى وجد ملتهب –فيما بعد– سار بصيته الرِّكبَان!
ومع ذلك لم يجرؤ هؤلاء (الرِّكبان)، ولم تجرؤ جواري (الكيرا) على إذاعته؟!..
فظل سرِّيا، حميماً. ولم تجرؤ تلك العرَّافة (الحيزَّبون) (الميرم) على مجرد التلميح به، إلا إذا شاءت الكيرا نفسها..
كان سراً شائعا، لكنه سرِّيا تماما!!.. الجميع يعرَّفونه، لكن لايجرؤن على مجرد الهمس به! فلا أحد يستطيع القول (أن بنت السلطان عزباء!)

تلاشى صوت (الجَدةَّ) في فضاء الأحداث، وأبوعلي لايقوىٰ على استرداد بصرَّه من الشارع، الذي يغلي كمرجل.. تتناثر الأقاويل عن الآتين شرقاً.. عفونة القائم ونتانته تزكمان الأنوف! وشبح رَّهن الرَّار ماثلاً.. القَرَّار المرَّهون منذ الاحتلال التركي/ المصري في ١٨٢١.

الذين يهيئون أنفسهم للبحث عن وطن بديل، يتلمظون شفاههم اليابسة.. بائعات الشاي، (الفول المدّمس) و(التسالى) وأشياء أخرى؟!..
المتسولين، صبية الورنيش، باعة الماء والمشردون، يملأون الطرقات!.. كل يحمل فى دواخله جرحاً عميق الغور، يذكيه عواء البطن الخاوية إلا من مرَّارة الأيام.
الشباب المتجهين جنوبًا وشرقاً، ببدلاتهم (الكاكية) يحدِّقون في شارع النيل بنظرات كابية، وناقلة الجنود، التي تقلهم تمضي بهم إلى قدرهم المحتوم!..
المسافة تثوي داخلهم كل املٍ آت، أو حُلُم جميل مرتقب!..
شارع الجامعه مكتظ بالذين يرتدون طاقيات الإخفاء، يتتبعون النبض منذ مطلع الغَّد المخبـأ بين تلافيف (الجلابيب) حتى غياب الأمس الملتحي! والذين في (بيوت الأشباح) وغرف التوقيف السرِّيَة، لايزالون يعانون عذابات الدَرَّك الأسفل!
الجماجم أسيجة للأجساد المكتنزة، وصهيد أفخاذ الأرامل، المترَّع بالأسى، يغذي الوجع الخرافي. والعمارات التي لا تزال تسمق دون مرؤة، والهاربين من الأرياف البعيدة، تزداد أعدادهم، ينافسون أهل المدن على بيوت (الشوالات) والقش والصفيح!
المخدرات والخمر فوق سن العاشرة حتى القبر!..
رَدَّت سلوى بصرها من شارع النيل، إلى الداخل.. بدت لها مبان الجامعة كأشباح تلتهم كل شئ، فالداخل إليها مفقود والخارج منها مولود! الحرائق والملتوف: سلاح الطلاب وتلامذة المدارس، ضد عنف السلطة!.. والأعداد التي تتناقص بعد كل معركة!
كافتريا كلية علوم الإقتصاد امتلأت بصغار الملتحين المهووسين المستقبليين من ذوي الخياشيم والزعانف، وقراصنة الأخلاق، والفاسدين المتدثرين بعباءة الدين وكراس النوايا ومُلاك الحقيقة المطلقة!
الجداريات السياسية التي تحمل سطورها رنَّة الغضب العارم، والأخرىٰ الصفراء الباهتة!.. كل شئ كان يكشف عن حتفنا!

شبح والدي يتسلل من الفراغ المحيط، من بين سطور الجداريات يحاصرني صوته المهيب:
"وبنيت بلدة في الصحراء، وأصبح النّاس ينادونني بالكلس، لإنتمائي لهذه الصحراء!.. في هذه الصحراء تعرَّفت على أمك التي قدمت تتبع ضوء إلاهها (دينج) وتحلم بمجد شعب (اللُّوَّة العظيم)! وتزوجنا بعد حب عنيف، أنا (المندكور الكلس) سليل تهراقا وبعنخي ملك النوبة العظيم، و(هيلدا) سليلة شعب اللُّوَّة، التى قبلتني حبيباً وبعلاً!
لم أرحل إلى الصحراء ياسلوى، إلا بعد أن ضاقت بي المدينة، وأحالت حياتي وحياة النَّاس.. كل النَّاس إلى شقاءٍ وضجر!
كنت أول من قطن الصحراء، ولم أكن أتوقع أن ثمَّة من سيحذو حذوي، وأن بلدة ستنهض هنا تُبعَثُ من رُكامِ التاريخ البائد!..
لكن لم تستمر هذه البلدة ياسلوىٰ، فوجئنا بليل أليل، أنفق النَّاس والبهايم، وأزال بلدتك، بلدة عتَّام، بلدة الكلَّس عن سطح الوجود!.. ولم يتم العثور علَّيْ، ولا علىٰ هيلدا..
كانت الإذاعات والصحف اليومية، تتصدرها أخبارنا، التي تُختم بمكافئاتٍ مغرِّية لمن يعثر علينا!.. وكان ذاك موسم العَسّسْ والمخبرين العاطلين عن العمل، سعوا جميعهم للقبض علينا أحياءاً أو أموات!

الكلَّس يا سلوىٰ لم يكن إرهابياً يقود آلاف المتمردين، كما زعمت وسائل الإعلام الدينية لتبرير قتله، ولم نفعل ما فعلنا استلهاما لأسلافنا القرامطة، وليس ثمة علاقة ما لبلدتي التي كوَّنها النازحين من السُّل و الكوليرا والجفاف والتصحر والحروب بمخابراتٍ أجنبية! –أنها فِرْيَّة يا سلوىٰ.. نعم فِرْيَّة زعمهم أنهم حصلوا على معلومات تؤكد إنتماء زوجتي لمنظمات سرِّية مخرِّبة، تشرف عليها سفارتا إسرائيل واليانكي؟!..
إذاً اختفيت.. وأختفت هيلدا.. اختفينا.. في تلك الصحراء الممتدة وتلاشينا في ذاكراتها البائدة، في كل صوَّى ساري أو علامة طريق، واستحلت لنجم يهدي القوافل الراحلة في اللانهاية!"
"سلوىٰ، سلوىٰ.. قلت لك إجلسي و لم أقل أصمتي!.. ماذا بك؟!"
إنتفضت كالملدوغة:
"آسفة يا أبوعلي.. لاأدرى لماذا يحدث لي ذلك؟!"
"ما الذي يحدث؟!"
رمقته بنظرة غامضة، احتوته لبرهة، ثم تراجعت..
"لاشئ، لاتهتم!"

"ماذا بعد أن جلسنا؟!"
همس أبوعلي وهو يسترد بصره:
"هذا الخريف ولادَة قسرية!"
فضحكت:
"ربما تكون له علاقه بالعاهات النفسية!"
.. ولم يقل لها أن سلمى زميلته فى الشُّلَّة، لاتتبدل حالها إلا خريفاً.. ولم يحدثها عن نساء الحي في مدينته تلكن المصابات بالإنفصام خريفاً!.. ولا كيف أيقظه عادل فى الثالثة صباحاً فقط ليقول له: "صباح الخير يا رفيقي!".. ثم تسلق السرير الـ (مزدوج) مرة أخرى، وأستلقى دون أن يضيف شيئاً!
من غيرالعادي أن تكون عادياً في الداخلية، ملأ عينيه بوجهها الصافي، شعرها الأسود، شفتيها المكتنزتين بالندىٰ والغسق، ساقيها الملفوفتين –تبدتا من (شِق) الإسكيرت الجينز– ممتلئتين طلحاً وأطفالا وكرزا وعصافيرا ومرمر!.. صدرها العامر بحطام قياثير المدن الولهىٰ، الملتهبة، وآخرالعاشقين من؟!.. وليس ثمة نيرون جديد، ليسمع: نيرون مات، ولم تمت روما!..
شعر بها تحاول إخفاء الإثواءات التي خلفتها إيحاءاته. تهدج صوته:
"المراهقات أيضاً تزداد مفازاتهن ظمأ، حين يبدأ موسم الأمطار!"..

.. وهكذا تزوجنا أنا ونَوَّارْ..
أسبلت عينيها في حياءٍ أُنْثَوِّيٌّ شقِّي، مُلهِب. ولم تنظر إلى وجهه مباشرةً.. ثمَّة حريق عم أعماقه مندفعا كالحمم البركانية، كان يؤمن أن أجمل ما في الشعر العربي، جاهله..

"كان العرب عباقرة لأنهم وعوا سلطة الجسد يا سلوىٰ، فألفوا في فنونها، من الإنجازات ما يضاهي إنجازات عصر النهضه الأوروبية، فالوشاح في فوائد النكاح بمثابة لوحة، أكثر عبقرية من الموناليزا، وديوان الشاعر العظيم أبو حكيمة بما جسده من حروب طاحنة مع عضوه الذكري، يضاهي كل تماثيل مايكل أنجلو العارِّية!
ونواضر الأيك... ورشف الزلال... أكثر قيمَّة من كل ما كتبه علماء الغرب، الذين تعرضوا لانتهاكات في وقت ما من حياتهم، أو عانوا من الكبت، بسبب التطرف الطهراني في عائلاتهم المسيحية المنقرضة!
فمؤلفاتهم التي يزعمون أنها تثقفنا وترشدنا إلى حياة جنسية معافاة، ما هي إلا اسقاطات الكبت الرأسمالي الممنهج لاشباع رغباتهم التي فشلوا في تحقيقها!
أما رجوع الشيخ إلى صباه وتحفة العروس، لو اطلع عليهما فرويد ومناوئيه من المدارس المختلفة، لقوضوا كل أسس علم النفس والاجتماع الجنسي، التي شخصت حالات مجرمين السجون، ولرموا بفرضياتهم في سلال القمامة العالمية، وانطلقوا من مقدمات جديدة، ربما على ضوء ما جرى بقصر هارون الرشيد أو روضة الحسن بن هانئ أو غوطة دمشق وعُلب ليل غرناطة!
"لا أعرف كيف هى هكذا المقارنة؟!"
فحدثها عن الحرَّاز و علاقته بالمطر...
"لماذا تجف أغصانه و يصاب بالياس خريفاً! هل (يعاف) المطر، أم هو ثقب الأوزون؟!"
"للأمر علاقه بالجغرافيا. و للجغرافيا علاقه بالجسد يا سلوىٰ، علاقة بالأساطير والأديان، ولكل ذلك علاقه (بالأبستيم) ليست المسألة عولمة مجردة، أو إعادة إنتاج لمقولات الدفاع عن العالم الحر، أو ماهى طبيعة إنعتاقنا، وكيف، ولماذا و...؟"

أحس أبوعلي أنه يُشارِف على إلقاء قصيدة ثورية، كعادته.. شاهد في عينيها شيئا هجينا، بين امرؤ القيس و محمد عبدالحي.. لم تتكفى نظراتها.. تمعنت وجهه المكدود، وحاولت أن ترى فيه تنبؤات الوداعيات، عن غدٍ ليس بناظره قريب، وليس كالأمس المرتقب!..
تسلَّلت كلماته إلى قلبها المشروخ، تعالج فيه الحزن!.. زوجتها أمها لأول قادم التهمت السنون عمره، لكن فى جيبه تتناسل الدنانير، محتضنة الدولار في حرص!.. الفقر لا يرحم والحياة موجعة، والذِّكريات أليمة و:
".. قعاد البنت في بيت أهلها، بعد البلوغ، يوورِّث الفقر الأبدي!"
هكذا حسمت أمها الأمر..
"الدنانير فتوة وشباب، والعريس هرم، أيام قليلة ويغيب في الضباب السماوِّى الأخير، فتتحررين وتتزوجين بمن تشائي!"
وهكذا تزوجت سلوىٰ من الحاج عباس!.. يومها زارتهم نَوَّارْ، وكانت تلك هي المرَّة الثانية التي تلتقيها.. رقصت نَوَّارْ مع العروس كما لم ترقص فتاة من قبل!
كانت تدور حول نفسها.. تبسط يديها، تثنيها.. تثني ساقيها وتمد عجيزتها، ثم تحسرها، وعلىٰ الأرض تنتظم دقات قدميها في إيقاع مقلق، موتر!
كان رقصاً غريباً لدرجة الجنون، بدائياً، متوحشاً وسافراً!.. وكانت سلوىٰ ترد على الإيقاع بايقاع منتظم. يملئوها الإحساس بأنها مقبلة على حياة بردها موجع، وفراشها موحش!..
وهى تطأ باب دارها الجديدة، ودعتها نَوَّارْ بعد أن أعطتها وصيتها الأخيرة، للذى تركته عند (مفرق البحر والجاسر) لحظتها عرفت نَوَّارْ أكثر، وحفظت حكايتها عن ظهر قلب، وتعرَّفت على شهاب أبوعلي، كانها تراه أمامها الآن!

ولم يتحقق لها الدفء مع الزوج الهشِّيم.. كان الفِراش كئيباً كليال الشتاء الطويلة، وقاسيا كالخبز الحاف، وجافاً كوجه حاج عباس الشائخ، بمشاعره التي انطوت في الارشيف.. و.. والنساء اللائي سباهن بني جرار كُنَّ مأزومات من مداعبات العبيد الخصيان، في قصور الفونج!.. كُنّ مستثارات.. يقول طنير:

حليل البِنَيَّة أم أحمد، العديلة قومتها
كيف شارك اللَّحاية شابلة ضفيرتها
ناس فسيخة وناس فسيخة مامن جماعتها
عيل زولا يوقد النَّار ويدفأ حارتها

بحجم إثارة الكشج والمأكمة لمشاعر أبوعلي، توغل صوته المنفعل متداعياً كطوابي الشاطىء الغربي للنيل جهة أمدرمان.. وهو يستفز دواخل سلوىٰ لتحكي عن تلك السنوات.. في تلك اللحظة دفق وألق..

وإذن أُستردت الخرطوم!.. أنها سلطة الجسد، ككتائب الجيش المحنك!..

"أترين تلك العصفورة؟.. أنها تبحث عن عصفور!.. الطيور تتكاثر خريفاً!"

"حكمته بالغة!"

"ماذا لو أصبحنا عصافير؟!"

"النّاس!.. قالت نَوَّارْ، سيدها الشيخ.."...

"لا، الإنسان سيد كل شيء في الكون.. كيف تتسيد على الآخرين.."

"لانهم ليسوا سادة أنفسهم.."

–مسته فى هاجسه الاساس– فتمتم ثم قال:

"أُنظري، القرامطة، كلفتهم سيادة أنفسهم عشرين عاماً من الحصار!"

"ماذا تعني؟"

"أقصد أنهم، فعلوا مثل الكلَّس، والدك، تماماً.. لم يتنازلوا عن تصورَّهم للعالم والحياة والناس، قاوموا التصورَّات البديلة.."

"وهل كان تصورُّهم صحيح؟"

"أنه السؤال مرة أخرى، هل كان الكلس على حق؟ في الواقع ليس لذلك أهمية، المهم أن لديه رؤية خاصة، حاول تطبيقها.. آه، تباً .."

قالت بلهفة:

"مابك؟"

"صداع؟"

مسدت بأناملها الرقيقة على جبينه برفق، وهي تقول:

"أنه الإرهاق.. عادل قال أنك ترهق نفسك كثيراً"

تنهد بارتياح:

"لقد شفيت، أناملك الرقيقه بلسم لكل جراحات العمر ياسلوىٰ"..

تخضب وجهها كمراهقة صغيرة..

"العمر فقط؟"

قالت بهمس، فاجاب في إقتضاب:

"بل حتى جراحات التاريخ والذكرى الأليمة. ونَوَّارْ والأشياء...

كان الحديث وعراً. ينحسر ويفيض عن ليل أليل وقمر لا يغيب ونافذة واحدة للعشق و الجنون، وأخرى للرماد والغبار و الصدأ..

هبط عادل فجأة بينهما:
"ألازلتما تجلسان؟"
"أيضايقك هذا!"
والتفت عادل إلىٰ سلوىٰ:
"صديقي رائع أليس كذلك؟"
"هو كذلك.."
كانت سلوى قد بدأت تتماسك في دواخلها.. أهدابها المرتخية، ورموشها الوطفاء شكلا لوحة غامضة ومثيرة في آن!
نظر عادل باتجاه شهاب، أبوعلي، فقال الآخير وهو لا يزال يتأمل سلوى:
"نعرف بعضنا منذ زمن طويل ياعادل، كم هو رائع. الوقت حين تنتزع لحظاته الجميلة من بين أفواه الذئاب.. أولاد الأفاعي!"
لم يفهم عادل شيئاً، أطل خبث خفي من عينيه العميقتين، اللتان أصرتا على أن تُعيدان أبوعلي إلى تلك اللحظات المشحونة بالتوتر و القلق و السُّهاد.
عندما عاد إلى مدينته فى إحدى تلك العطلات البعيدة، نهض ليلاً ونزوة حادة تتحكم في كيانه، كادت تلقيه خلف حائط الجيران، في اللحظة الآخيرة، تماسك. وتأكد أنهم سيعتقدونه لصاً وستضحك فيه إبنتهم سعاد. تلك العاهرة الصغيرة، ذات الثمانية عشرة ربيعاً، بكل ما تخبىء من شماتة، فهي الوحيدة التي كانت تدرك حقيقة الأمر!
اللعينة أثارته نهاراً ومضت. كانت تدرك أنه ينام قرب الجدار الفاصل بين بيتيهما من الداخل، وهو يعلم أنها تنام في المكان المقابل له تماماً من الجهة الأخرى، ولكم تمنى مراراً أن تقفز إليه بعد أن ينام الجميع!
لكنها أبداً لم تفعل، بل مضت في غيِّها ترفع صوتها عاليا، ذلك المساء! ثم نامت بعد أن اعتقدت أنه لا يسمع ضحكها وتحرشاتها الموحية! الأدعى للخلاعة والمجون، في حديثها الذي تتجاذبه وأسرتها!
"كيف أنام أيتها اللعينة، وقد أطلقت شياطين الجحيم في دمي!"
أنه يعلم مدى ظمأها وهي تعاني وحشة الفراش الخاوي، وبوح الخريف، بل يكاد يسمع صوت تقلبها على فراشها، دقات قلبها، تنفسها!
انتظرها صباح اليوم التالي على الباب.. وتعمدت اللعينة الإكثار من الخروج و الدخول وهي تنظر إليه بخبث دون أن تعطيه فرصة للبوح!
فى تلك الليلة تبوَّل على الجدار! رأى فتات القلب والنخاع الشوكى يتكوَّم، لزجاً والبول لا يقوى على فت تماسكه الصلصَّال.. تنهد بحرقة..
"كان ذلك سيبلل غياهبك، أيتها الشبقة الصغيرَّة!"
و تراجع عن التغوط، لكنه رمىٰ بسفة تمباك، وهو يتخيل موضع سريرها.. أحس بها تقصد تعميق الحرمان داخله وتقتل فيه حُلُم أن يكون رحالاً، كل الأوطان، وطناً له! وكل عيون ربات الخدور الناعسات، عنوانا له! يستند عليها وتتكئ داخله!
وإذن جرجر شهاب أزيال خيبته، ميمماً وجهه شطر (النجار) الذي يقابل دكانه بيتهم، حيث يجلس عم "محمد أحمد " العجوز المتقاعد تحت ظل "النِّيمة" منذ سنوات!
كانت حياة "محمد أحمد" فى شبابه حافلة بليال الأُنس الحمراء و الخضراء والبنفسجية، إلخ..
ليس ثمة شئ يتعين عليه فعله، كفحل زنديق و لم يفعله، وها هو الآن وحيداً، معبأ بالنسيان وأمراض الشيخوخة، يهتاج أحياناً عندما تغمز إليه المراهقة الشقيَّة سعاد بعينيها..
لو كان متزوجاً لكانت صغرى حفيداته في سن سعاد!.. تأوه محمد أحمد و هو يرد على تحية أبوعلي الفاترة..

انتشله عادل:
"أين أنت يا أبوعلي.. أين سرحت؟!"
إنتفض شهاب:
"ها!.. ماذا هناك؟
"كنت أقول أن سلوىٰ تعرفك قبل أن تلتقيك.. أين كنت؟!"
"أنا هنا. هذا صحيح ، أنها رائعة، رائعة بحق.. أعرفها منذ زمن بعيد"..
نعم منذ زمن بعيد.. قبل أن يستسلم المقدوم مسلم لخيول الترك!
أردف أبوعلى:
"أين (خطيبتك) نهى؟!"
لم يكن ثمة شئ يعنيه.. ولم يشأ أن يقول له (حبيبتك)!..
"تركتها سلوىٰ في البيت (معرفة قديمة)"
"ألا تُسمعنا قصيدتك الآخيرة"..
خدر شفيف سرَّى في جسدها، ووجهها يتلوَّن بلَّونِ التفاح..
"أننى (شاعر بالأزمة)!"
".. ... ..."
"مفجوع!"
ـــالسياسة اللعينة، الأزمة هنا! لايهم إحداث إنقلاب سياسي بقدر مايهم أن يسبقه إنقلاب ذاتي على مستوى الفكر والمفاهيم، إلخ.. هأ، هاي—— قال بحزن:
"أحاول قتل الشعر والفجيعة داخلي"..
استردت سلوى نفسها من براثن لوعتها.. تخلصت من صمتها الخارجي:
"لماذا؟"
لم يجب..
"لن تستطيع!"
"لماذا؟!"
"لأنهما قدرك الذي أفقدك نَوَّارْ!"
"إنها مرض مزمن، وجميل لحد الوجع.. كالحب تماماً!"
صاح عادل:
"لم لا تقولا تفضل؟!"
ردت سلوى بهدوء:
"كيف ونحن ضيوفك!"
كان أبوعلي قد سرح بعيداً عنهما.. غزته مدينته وهى تسحب شريط الزَّمن إلى الخلف.. توقفت ذاكرته مرَّة أخرى في عطلته الأخيرة، بعد آخر اعتقالات الثانوي:
الوقوف دون قيد تحت المظلات وعلى الكباري، الجلوس عند بائعات الشاى في سوق (الملجة) والذهاب المستمر في تفاصيل نَوَّارْ: إمراة دفء وأنا كُفء.. قال مظفر النَّوَّاب.. الألق والمظاهرات المرتجلة..
تأوه بعمق ينِّم عن حسرَّة حرَّون: ليس ثمة وطن حنون وإمرأه رائعة، إلاك.. برغم تغير الزَّمن.. إلى أن أصبح للمدينة طعم مركب!

حسام الأعرج جارهم في الحي، أستطاع آخيراً إقتناص اللص الذي قض مضجع الأهالي لسنوات عديدة، بتوصيلة الكهرباء (الأرضي)، إلى الشباك. لكن هذا الحادث لم يثر اهتمامه بقدر ما أثارته حادثة الشاب عابدين، الذى غزا أحد الأحياء، المنزوية في قاع المدينة، وسبىٰ (زينة) على طريقة بني جرار التاريخية و هو يهتف:

بِنْشْلْ الليل عَلَّى كُرعَيَّا
شراب الأمريكان حَمَّرْ قُدودْ عِينَّياً
مارِيَقَة أَمْ كَّيفِّه للآخرْا فى إيديَّا
كَسْرْ الكْسَفرِيْتْ قَلَّع مَضَافرْ إِيديًّا..

(زينة) المراهقة، التي لم تبلغ السادسة عشرة بعد! أطلقت الشرطة سراحه بعد أن أقرَّت المراهقة، أنها ذهبت معه بمحض إرادتها؟..

مضت عشرة أيام من العطلة، فشارك في دفن سبعة ممن ماتوا بسوء التغذية!..

كان الحي رمادياً، كئيباً، لم يعرَّف طعم الحفلات البهيجه منذ أعوام عدة، الجميع يعيشون ليأكلوا، لا أحد ياكل ليعيش!.. القطارات المتوكئه لاتزال تئن، والمسافرون خلو من أي وفاض.. بلا أشواق أو أحلام. لا أحد يشتاق لأحد فى زمن مصادرة الحلم ـــهذه المدينه تخلو من المؤمنين! تفوعليك زمن!ـــ الشجيرات صبأت، والطريق أختفى خلف الحفر، والبحر الذي يحيط المدينه كإسورة، مبتورا دون معصم، بلا فنارة، تُهيئ للبواخر أن تطل، لتتدفق شحنات المشاعر أو حفنات الأحلام على المراسي البعيدة..

البواخر نسيت طريقها نحو الجنوب! فقط ناقلات الجنود في كل مكان!.. الجميع هنا يسافرون فقط ولا أحد يعود!.. الشوارع نفسها ما عادت تتذكر من عبروا بها، فقد المكان ذاكرته.. حتى الأزقة والحواري ـتَغَابَتْ العِرْفَة في ساكنيهاـ وجحافل الغرباء تعلق شارات الإنتماء لبلدة عاهرة، كعلامات المرور، والمرابون يملأون الطرقات، يُشرِّعون ألسنة الإرهاب الفكري!..

أنه زقاق التاريخ؟!.. الصينيون الذين يعملون فى إعمار الجامعات المزعومة، يتكلمون العربية بطلاقة، ولا تستطيع الإساءة لأمهاتهم ـبالدارجةـ دون أن يفهموا!..

أشياء مريبة يقتل الصمت، من لا يرغبون في إثارتها!.. سألت سلوىٰ:

"ألم يحن موعد الثورة بعد؟"

هي الأرض، تسأل والجميع أضعف من أن يصنعوا ثورة.. منهمكون في مناقشة وضعياتهم، والغنائم والأسلاب.. لايزال الأفق الاقطاعي فاعلاً، والعالم قرية صغيرة وتاج الدين البهارى يراقب المعارك المسلحة باللحي والظلام والجنون.. تخيل مجرد خيال: أن يكون رأسمالك في الحياة لحية.. لحية وحسب!.. قال عادل مداعباً، بمرارة وهو يشير إليه:

"أسألى الاستاذ.."..

ـــكانت نظراتها يملؤهما الحزن، لم أشأ أن أكرر ذلك الكلام الممجوج عن جدل الذاتي والموضوعي وعلم الثورة، لم أشأ أن أكرر هذا الهراء!ـ

"الثورة بأي مكان؟"

نظرا إليه واجمين، وتذكر هو كيف كان يتكلم يملؤه الحماس في الذكرى العاشرة (لثورة أبريل المجيدة) والطلاب بعضهم مشدود معه، والبعض الآخر بدى منداحاً مع حبيبته، التي تجالسه.. أنوثتها، هتافاً، تظاهرة عرَّمرَّم.. لم يأبه لشىء.. عندما أنهى خطابه بصق على منصة (النشاط) فهو لا يستطيع أن يتبول هنا فاكتفى بقذف (سفة) تمباك، كانت تختبيء أسفل شفته العليا، رحل بعدها لقضاء (حاجته) وقضاء العطلة بعيداً عن هنا..

اشتاق لتداعيات الماضي ودفء نَوَّاَرْ البعيدة والجدول والبابور..

"منذ خرجت من المعتقل وأنت لست أنت يا أبوعلي؟"

"كانت نَوَّارْ معي دائماً، تلقمنى الدفء والصمود"
"أنت وفي للتنظيم.."
"لم أصمد لأجل التنظيم.. فقط قيم الرجولة.."
"ماذا تعني؟"
"أعني أنني كنت أميناً مع نفسي وهكذا سأظل.. هل تريد أن تحللني (بالكوانتم) أم (التشظي) ها.. أم الجدل التاريخي؟"
"يبدو أنك مرهق يا أبوعلي"
ـــآه، عادل.. أيها المتأبلس، لماذا تنظر إليّ هكذا؟!.. كأنك تعرفني لأول مرَّة.. إذهب كما أنت وجهك يلعن قفاك ـــ
كانت الكافتيريا قد خلَّت تقريباً إلا من ثلاثتهم. نظر عادل إلى ساعته:
"المحاضرة الثانية، سأدخل.. لوأتت نُهىٰ ياسلوىٰ قولي لها أنني بإنتظارها قرب شجرَّة (الأركان).. وأنت يا أبوعلي، الذي فاتك كثير، يجب أن تلتفت (لأكاديمياتك) قليلاً، إنها السنة الأخيرة يارجل!"
رد أبوعلي بجفاء:
"لست بحاجة لأن يقرر لي الآخرون الأمور"
انصرف عادل لا مبالياً واحتدت سلوىٰ بتلقائية:
"لماذا كنت جافاً معه؟!"
"ربما أن أعصابى تعبانة.. آسف، لاتزال نَوَّارْ تلاحقني.. أنه لا يشعر بذلك.. لا أحد يشعر.. ثمة أسوار عاليه تفصلني عن الجميع، و في ذات الوقت تصهرني فيهم!"
"..."
"لا أدري؟.. لا أدري.."
"هذا لايبرر جفافَك تجاهه!"
رد بحدة:
"أعرفه أكثر منك.."
"أنا..."
هدأ قليلاً، ثم همس:
"أنت نَوَّارْ، تلك الآتية من فلاة الكلَّس! يا سلوى.. من شقوق الأرض وبيوت الصفيح.. لاتشغلي نفسك بعادل، فقد أعادت له نُهىٰ توازنه.. ليس ثمة من يستطيع إزعاجه غيرها، مهما كان جافاً وقاسياً معه!"
"ماذا تعني: بأعادت له توازنه؟!"
"خدعته إحدى الفتيات اللاتي ينتمين لمن يمشون خلف الآخرين منذ مطلع الأمس حتى.. أحبها بجنون، كانت (ملظلظة) مثل تلك التي خدعت (بيريا) بعد وفاة (ستالين) ومثلما كانت تلك من ضواحي موسكو كانت هذه، من ضواحي أمدرمان.. عندما أكتشف عادل علاقتنا بزوار الفجر، كان قد بدأ الدخول في مرحلة الأزمة، وبدأنا في مرحلة تغيير هيكلة ومؤسسات التنظيم في الجامعة.. لم تخرجه من أزمته سوى نُهىٰ.. هي نفسها لاتعلم بأمر الخديعة التي تعرض لها، كالعادة العقائديه في التكتم.. المعرفة على قدر الحاجة، لا أحد يعلم سوى من يهمهم الأمر!"
"لماذا تخبرني بكل ذلك؟!"
"لأنك أولاً نَوَّارْ، ثانياً أنت التي سألت وثالثاً.."
قاطعته:
"لديك طريقة غريبة في الإقناع!"
".........."

"سلوى..."
.. ورحل أبوعلي كعادته في شروده المقيم!.. كل لحظة دفء يختلسها، يُطِّل عليه من فجاج اللهب والحريق وجه خالد الذاوِّي في النَّار.. تأوه:
"ها أنت مرَّة أخرىٰ تتذكر خالد.. إنها صدمة!"
"أنا لم أنسه لأتذكره، ثم ماذا تعنين (بصدمة؟!)"
"لا أعني شيئاً.."
ثم أضاف بصوت عميق لا قرار له:
"كان يقسو على خالد كثيراً"
وسحبته الدوامة العميقة لصوته.. سحبته إلى ذلك المساء الذي تلى خروجه من مدينة العسس بأيام، قال عبدالله متوتراً:
"كان خالد الفتى القزحي يشكل في دواخلي وطنا بكل عذابات الغربة والنَّفي..
فى ذلك المساء، المشعث.. المشبع بالحرَّارة جاء عبدالله، عادل ومحمود.. إلى غرفتنا أنا وخالد.. كانت كما هي منذ فارقتها آخر مرَّة بجدرانها التي تزينت بعبارات على نسق: "إحذر اللَّمس، كل شئ هنا قابل للإنفجار!"..
كان عبدالله بذات حقيبته الأوميغا البُنِّيَّة القديمَّة.. تحدثنا كثيراً عن المعتقل والمعتقلين، وإيقاع الحياة الذي يلتهم الإحساس بالأشياء الجميلة..
كان كلانا يبحث عن شئ ما غامض في داخله، يود لو يتمكن من توصيله للآخر ويستريح!...
شئ ما يلمع في ثمانية عيون، لا تميز فيها سوى الحزن، شئ غير المجهول!.. كتمت إحساسي وأنا أسعى لاستكناه مدى إيمان عبدالله بالحرِّيَة، كما كان الفتى القزحي يُعبر عن قلقه دائما!..
أحسست بشئ ما محدق في الأفق قبل أن ينطق عبدالله بحرف، فقفز خالد إلى خاطري، عندما رحل فى غموض آخر مرَّة قبل أن أعتقل.. كان كابي النظرات.. بدت نظراته خابية البريق!..
"ألا زلت غاضباً من عادل ومحمود؟!"
"لقد نسيت الأمر ياصديقي.. نسيته.."
"كان خالد واهناً.."
أخذت أنفاس عبدالله تتسارع.. تلهث:
"الفتى القزحي عاش أوروبا بكل خلجاتها.."
كان نصلا حاداً ينغرِّز في دواخلي، فأنزف كل رعاف السنوات المقمقمة، وعبدالله يطرق على القمقم بعنف ودون تردد.. ومحمود وعادل، ساكنان سكون الموتى، لا أحد فيهما يود لو يساعده.. وأنا أشعر بما لا أعرفه، أحس بما سيقوله:
"تتراءى له أرصفة أوروبا التي وطأها بامتداد تاريخه العائلي وتاريخ بلاده.. الأرصفة النظيفة، الأحذية النظيفة، ناطحات السحاب، التكنلوجيا، الآداب والفنون، اللُّغة.. وكثيراً ما كان يكرر أن سر نهضه الغرب يكمن فى اسيتعابهم للغتهم!
عرفوا أسرارها فعرفوا أسرار الانجيل والتوراة.. عرفوا أسرار ديانات العالم وعلاقتها بالحياة وصناعة الإنسان لقدره!.. فكر كثيراً ثم قرر أن يكون حرية خالصة!.. طاقة محض!.. فأختار خاتمته على نحو بدى مخيفاً جداً، قالباً التاريخ على قفاه!...
أخيراً تكلم محمود:

"الصحيح عقليا غالبا هو الخطأ واقعيا!.. هكذا اكتشف خالد بشكل سرِّى فقرر أن يتحرر من كل المؤثرات على الطاقة، عليه، حريته!.. كما كان يشير مرمزاً خوطره الكثيفة.. ثم.. ثم، اتحدت روحه مع الفضاء اللامتناهي!.. وأنتهى كل شئ إلى العدم: طاقة محض!

الشباب الذين يموتون هناك، ترى أوجدوا الحور العين، أم اتضح أن جواري الميتافيزيقيا من خدع حُرَّاس النوايا!.. لا أصدق أنهم ذهبوا لأجل شئ آخر، لا يتعلق بحساسية القوانين التي تتحكم في بنية وعيهم التناسلي، العالي!.. كالتطلع فى وجه الحق، الكريم! أوصحبة الخاتم!..
هي المرأة إذن، والجوع الجنسي.. أهم عوامل قيام الحضارات وسقوطها.. حتى المهدويين لم يسلموا من إسارها.. كتب ود تورشين إلى الملكة فكتوريا: أسلمى، تسلمى، ولئن أسلمت لغيرنا إسمك وثيابك ولختناك وزوجناك الأمير يونس الدكيم إن رضىّ هو بذلك؟!..
وفي الحقيقة لم تكثر (حوادث وحادثات) الطلاق والزنا والتصفيات التي بلا سقوف، أكثر مما هي الحال في تلك الفترة!.. لم يكن ثمة إتفاق إلا على شئ واحد: أن قائد الثورة، هو المنقذ المنتظر شخصياً! ولكأن التاريخ يكرر نفسه منذ انقلاب 1989 مع تغيير طفيف: الأسماء! فكل شي كما هو. لكأن المهدية تعيد إنتاج نفسها في هذا النظام!
فعلى ذات الدرب، ثمَّة منتظراً آخر، ببدلة رمادية يجدد الاعتقاد، فى إطار إعادة إنتاج مقولات عصر المماليك، ومفاهيم زمن الانحطاط، و اجتهادات آخر الملوك السفهاء.. ونتفق على ألا نتفق!
"ثمة تشوّه طبقي!"
قالت سلوىٰ وهي تجلس.. فرد أبوعلي وهو يعد لنفسه مقعداً: "لا يا سلوى إنها تشوُّهات في الوَّعي!"
"ماذا تعني؟!"
"هناك مقولة لماري ستيوارت عن أن الذين يملكون بصيرَّة إلهية هم غالباً بحالة عمىٰ عندما يتعلق الأمر بشئون الحياة اليومية الإجتماعية!"
"لكنهم يموتون لأجل قضية يؤمنون بها!"
"منذ 1956م ونحن نقتل أو تستشهد أو نموت.. اختاري الاسم الذي تفضلين لفعل مصادرة حق الحياة، ومع ذلك لم ننجز شيئاً، فقط تعمقت الأزمة.. ثمة مشاريع دول منجزة نظرياً في بلادنا.. نحن تمضي في طريق التفتت إلى دويلات!"
"إن تداول السلطة..."
"أرجوك، أنا لا أحب الشعارات ياسلوىٰ، فلاتزعجيني بها.. الجميع يدَّعون الديمقراطيه والسلم على سبيل التكتيك الليبرالي.."
رَفَّ هدبها في قلق، أحسَّ بالعِقد الذي (يَنْضُم) دواخلها يتفلَّت.. فتتبعثر وتتناثر أشياؤها، على قارعة محاسنها الفتانة!..
تعثرَّت يمامة على شجرة الحرَّاز، المغطاة بأغصان شجرة الجميز الضخمة، المتمددة على سقف الكافتيريا والفراغ! لوَّن هديل اليمامة المكان، مظللاً شجرة الجميز!
مهرَّت الأغصان الشائخه بخريف آخر، يجرح الجدب ويختزن في ذاكرته كل الأحلام السِّرِّية، المسرَّبة من وراء ظهر زوار الفجر!
قرأ في عينيها سِفراً حالماً، يختبئ خلفه أمر الحرَّاز والضعف الأُنِثَوِّي اللذيذ!

"ها هي بهجتك الحرَّش تشرع نواجذها مرةً أخرى والمدينة صامتة إلا من الطلقات المتباعدة، مجهولة المصدر.. من يراك يا سلوىٰ يظنك لم تتجاوزي العشرين.. أكثر من عشر سنوات تذوب في حيويتك ولا يبين لها أثر.. السنوات تستحي من نضجك!.. هذا النضج، القلق، المتوتر، الذي لم يقوىٰ عليه حاج عباس!.."..
أرخت أهدابها على صورته، التي ملأت عينيها، تنقب جراحاتها بلهفة:
"حذرَّتني نَوَّارْ منك!"
"ماذا قالت؟!"
"بدوي، بذاكرة المدينة.. لا يكل ولا يمل الترحال في ديار العامرية. جلف لا يزال يعتقد في السبق والرَّمح أداته، في إنتزاع النُّوق العصَّافير من النُّعمان بن المنذر، وربما كنز أبي الجرهم، ومخطوطات ذي القرنين!.. ولم تكن تدري أنها تدفعني دفعاً إليك وربما تدري!"
"وإذن؟!"
"إذن كانت تمارس لَّيْ عواطفي نحوك!"
بحنو وخضوع شقيين، تسلَّلت ساقاه..
"مشرد أنا يا سلوىٰ!"
"لا تخشى شيئاً.. أعني.."
"هكذا، قالت نَوَّارْ آخر مرَّة ثم رَحلَّت.."
كان العواء بداخله يزداد، وكانت تعلم أنه يود لو يضع حداً للحرّاز الذي (يعاف) المطر.. غيمَّة تتخلى عن زخاتها.. تمتزج والتراب!
يتسلل الطين، برائحته المميزة أنفيهما، ببطء (دعاشي) مخدر.. يزداد الرَّزاز، يتحول إلى خيوط مطر، تلامس سطح المنضدة الدائرية، تسيل على الأرض.. وأخرى تطمث مانشيتات الجداريات السياسية، الملصقة في المجمع الإعلامي للجامعة.
يتشكل بين الألوان المطموسة وجه (نينا).. شبه الكيرا الخالق الناطق!.. والآن يا سلوى اللحظة ذاتها.. اللحظة تلك التي كان (آدمو) يتشرَّب فيها ملامحها ويتخيل الكيرا جدَّتها السادسة والعشرين، ناعمة الملمس مثلها تماما، عَطِرَّة الأنفاس!..
كانت نينا مسكونة بجدَّتها البعيدة، مثلما يسكنك الكلَّس، وكان آدمو حانقاً على ذلك الفارس المعقور، الذي أتى من الشمال الأفريقي على ظهر ناقة شهباء هرمة..
أحب آدمو نينا بكل العنفوان وبادلته عشقه النَّاري، الذي لم يتوج بتوحد إلا فى أحلام القيلولات، حيث يأتي طيفه إثر إرهاق العمل المضن في الحقول!
كان كلما حادثها فى أمر الزواج، ترد أن مارتجلو لم يأذن بالعُرس بعد، فيصمت آدمو على مضض، ثم تنسيه إبتسامات نينا (القمرية) مارتجلو وهموم الكون، علامات آخر الزمان!..
لم تكن قصه آدمو ونينا تختلف كثيراً عن قصة جدَّتها الكيرا، وذلك الفارس المعقور الذي أتى على ظهر ناقة شهباء من شمال أفريقيا، متقدماً جيش (كسوفرو) بثلاث ليالٍ ونهار!
"أنها لا تختلف عن قصتك مع نَوَّارْ يا أبوعلي"
"لا بل، قولي أنها لا تختلف عن قصة خالد"
"الأمر سيان"
"أتظنين ذلك؟!"
"لا أظن شيئاً"

شرب أبوعلى كثيراً حتى أستحال قدح عينيه للون الدم، وهو يحاول التخلص من خاطر خالد، الذى يسيطر عليه.. أطفأ عشرات الأعقاب، وأفرغ كيسين من (التمباك) أطل الصبح وأنتهى الليل بقلقه وتوتره وسهاده المضنى..
و(الحناء) التي تخضب يديه والزغاريد والمغنِّي يتلاشيان في المدى، الظليل بالحُلُم!
رائحة (الكَبَريت والدُّخان والخُمرَّة) ليلة الدخلة، والتفاصيل النِّسوِّيَة الأخرى تتسلل خياشيمه، تخدِّرَه حتىٰ النُّخاع، وتفقده الوعي.. تهدج صوته:
"آخيراً نَوَّارْ"
"لن أقبل بعد اليوم أن تناديني نَوَّارْ!.. أنا سلوى"..
قالت بدلال وهي تعجن حبات (الدِّلكَة) وتسحلها على جسمه الفارع، كجسد (موسى ودجلي!)..

إنتهى عادل من إلقاء قصيدته الثورية اليتيمة، التى يلقيها كنداء للركن السياسي حتى يتجمع الطلاب، و نزل عن المنصَّة، كان أبوعلي يتكلم على شرف الذكرى الثلاثين لثورة (أكتوبر الشعبية المجيدة)، وسلوى تجلس في الصفوف الأولى، عينيها تحتويان وجهه تماماً، تأخذانه إلى البعيد.. كان يخاطبها وحدها.. يخاطب فيها عتَّام، والكلَّس، وخالد الفتى القزحي.. يخاطب.. لم يكن ثمَّة وطن آخر غيرها يحسه في هذه اللحظة!..

وتلاشت الفنانة التشكيلية بين دوامات الطلاب المتزاحمين، تلمس أبو علي رأسه، لم تكن به عينان، تحسس جموع الطلاب أمامه، لم يكن ثمَّة شيئ! بعثر محتويات مخابئه. لم يكن هناك شيئ سوى السراب الليلي والصدىٰ والصدأ!.. اصطدم جسمه الزاحف بشيئ ما!.. كان غصن حرَّازة تقف عنده ممتشقة فتاة من سنار القديمة، بجرأتها وجرتها!.. أحس بنفسه يُبعث من جديد، تماماً كطائر مارتجلو!.. لم تكن هناك نَوَّارْ.. فقط سلوىٰ، مارتجلو والسرَّاب الليلي والصدأ!

توقفت الأمطار أخيراً!
تنهد أبوعلي وهو يشعر بالإختناق منذ الظهيرة، والأمطار تهطل!.. نظر إلى الساعة التي تزين معصمه النحيل، كانت تشير إلى السادسة مساء!
محمد شقيقه الأصغَّر لم يأت حتى الآن!.. خرج كعادته بكارو المياه مصدر دخل الأسرة الوحيد، منذ الصباح الباكر، ليوفر لقمة الخبز للأفواه الصغيرة المشرعة، فى البيت!.. تنهد أبو علي:
"ملعون أبوك زمن!.."
وكرر في دخيلته:
"من هم في مثل سن محمد، يتمتعون بحقهم في التعليم، لكم هو مخيف الأمر، كلما أفكر فيه!.. لكن العين بصيرة واليد قصيرة!.."
يومان مضيا على عطلة أبوعلي العارضة في المدينة، إثر رسالة مبهمة وحاسمة من أمه:
"لو أكلت هناك، تشرب هنا!"

كالعادة، وعلى حين غرَّة داهمه وجه جدَّته، منسلا من طفولتهم البعيدة، وجميعهم متحلقين حولها، لتلقي عليهم أحاجي قبل النوم، بعد شاي المغرب.. تسرَّب صوتها العميق الأجش لا وعيه:
مارتجلو هو أول ما يطالعك، بجباله الأربعة (المترادفة).. كالسينما تقرأ على أعصابه ونتوآته وعروقه النابضة كل أحوال التاريخ الشعبي، ملامحاً للناس والأشياء!
حياة كاملة عبر حقب طويلة، تتسارع على مخيلتك، مرتبطة بذلك الطائر الضخم، الذي كلما احترق وتحوَّل إلى رماد بُعث من جديد، أشد عنفواناً.. ذلك الطائر كان ينبعث من فجاج مارتجلو، ويحلق حتى قمته، فارداً جناحيه يظلل الوادي!
كل الخطوط التي تمتد على صخر مارتجلو، تحكي قصة الحياة وصراع شعب الوادي مع الطبيعة والغزاة! لحقب طويلة، بقيت في تلافيف اللاــوعى رُكاماً غامضاً!.. وينسحب صوت الجَدَّة رويداً، رويداً، ليحل هم الرسالة التي حملَّه إياها خالد الفتى القزحي، ليسلمها لأخيه سامي:
لابد أن أذهب وأسلمه الرسالة، وإلا سيموت الفتى القزحي جوعاً! لكن الوقت غير مناسب!..
لا يدري لماذا يحس دائماً بالإختناق عند هطول الأمطار، كالحرَّاز! لابد أن لذلك علاقة بطرق المدينة الترابية، الملتوية.. الخالية إلا من الأوبئة!..
أتى صوت أمه من الداخل:
"بتفتتش لشنو يا ولد؟!"
"الكبك القديم بتاعي كان هنا وينو؟!"
"طالع ولا شنو؟!"
"أيوا.."
"تلقاه جوا المطبخ تحت النملية"

كان الشارع طافحاً بالماء، والنَّاس كالظلال في ثيابهم المشمرَّة أعلا الركبتين، إحساس مؤلم كآلام الإنزلاق الغضروفي!.. بدت كارو برميل مغروسة في أحد الخيران وبدى الحمار متعباً ومتألماً!.. هتف الصَّبي صاحب الكارو:
"المساعدة يا شباب.. (أبو مروة)..
عرج عليه شهاب أبوعلي سبقه أحدهم، وتبعهما آخرون، شعر شهاب بلسانه يتمدد طويلاً، كأنه يعاني لسعات صيف حارق، وهو يحاول مع الآخرين رفع العربة من مؤخرتها.. تبلل بنطاله تماماً!
"المساعدة يا شباب.."
"هيلا، هيلا هيلا.. هيلاهوب.."
تمكنوا أخيراً من إنقاذ الحمار المتصبب عرقاً، برغم برودة الجو، وقف أبوعلي على مبعدة، يحدج العربة كالمنتصر!.. أحس بنفسه في تلك اللحظة، كأنه التوم فضل الله سالم، بعد أن قتل رسل (الخليفة ود تور شين)!..
كلب لعين في تلك اللحظة نفسها مرَّ راكضاً فتطاير رزاز الماء وأذهب ما تبقى من أناقته المزعومة!.. تنهد: أيقتلك عسس الخليفة ككلب أجرب يا شيخ رفاعة الهوى؟!.. وفكر في الرجوع، ونسيان قصة الرسالة.
إلا أن خاطراً ألح عليه، بأن الفتى القزحي سيموت جوعاً، لو لم يبعثوا إليه بقليل من المال!.. حفزَّه هذا الخاطرعلى المضي قدماً!

دائماً عندما يكون فى طريقه الى بيت (أسرة خالد)، تتعقد الأمور. في المرَّة السابقة كانت المدينة لاترحم، لم يكن الوقت خريفاً مثل الآن!.. في تلك المرَّة تلقى خالد صدمته العاطفية الثالثة، بصدر غير رحب: كانت حبيبته قد عبرَّت عن رأيها فى فقره للمرَّة الأخيرة وإلى الأبد!..
هكذا وجد نفسه مسئولاً عن تفريغ تأزمات الفتى القزحي ـــيحبون هم لوحدهم دون مشاركتنا، وعندما يتأزمون.. نتأزم نحن معهم!ـــ لم يكن أبوعلي يستطيع الكف عن التورط في تفاصيل خالد. الدروب المؤدية إلى بيت ناس خالد، كالدروب المؤدية إلى مضارب المسلمية محفوفة بالمخاطر، وأبناء الإنجليز لايرحمون، وخالد سيموت جوعاً.. الكلاب ربما تمزق بنطاله (فتتم الناقصة!)..
يا بنت الكلب، هذه الشوارع! كثيراً ما مررت بها ونَوَّارْ، لتقودني إلى داخلها أو أقودها.. حتفك الآن يا أبوعلي، تحس به يأتيك حثيثاً، صديقك المبجل يعتقد أنك تدبر جريمة إغتيالك! وهذا الشعور لايفارقك، كأن هناك من يتتبع خطاك النبض!
إبتسم أبوعلي في سخرية وقرف وهو يلتفت خلفه، أليس ثمَّة عسس بعد؟!.. لا يعلمون أنني وصلت.. وصلت هذه المدينة الداعرة!..
الطين اللازب مثل العَسس يجعل الوصول صعباً!.. وشائكاً هو الطريق، ودون الهدف (لبن الطير) خالد الفتى القزحي حساس.. أسى دفين، يشع من عينيه اللتين لا قاع لهما، وخالدة مكابرة، إستلبتها العولمة!
قبل أن يسافر خالد إلى بلاد لاتشرق الشمس فيها إلا عفو الخاطر، في منحة دراسية، كان قلبه مشرعاً للفرح والغد الجميل الآت!..
الغد الذي لا يحمل من ملامح الأمس سوى سمرَّة النَّاس وقلوبهم الناصعة الطيبة!.. إلى أن أعادته دولة (السجم والرماد) مع كثيرين ممن كانوا يدرسون خارجها، فأصيب بالحزن المقيم!
وعندما اتكأ على خالدة تعمق حزنه أكثر!.. لم يكن لدى أخوته المقيمين في دول النفط الاستعداد لمساعدته على إكمال دراسته! الغربة صعبة والفلس حار (ودولة السجم) تؤسس نفسها على تجهيل الآخرين!.. ولقمة الخبز دونها شوك القتاد والسباسب والوهاد وطلاسم سام بن نوح.. دونها.. و.. والسيف مشرع والرؤوس يانعة! اللهم ألا هل ظُلمنا!..
دبر خالد مصاريف السنة الأولى، بعد أن عمل جرسوناً فى مطعم لمدة عام، ووالده لا يأبه، بل يحاصره بفتاوى الطفيليين والخصخصة:
"السوق أبقى من العلم يا خالد.. أسمع كلامي وتعال أقعد، حا أفتح ليك دكان، تفيد وتستفيد، أفضل من قرايتك الماليها طعم دي!"..
وأمه المطلقة لا حول لها ولا قوَّة! ينهشها الهم والحزن على مصير ابنها الشاب المتعلم والمصروف القليل، والأب الذي يصرعلى إثبات فحولته للعاهرات، فيقضي جل يومه في الخمارات، والبيوت التي لاتدخلها الشمس إلا وتتعفن!..
الأب الثري، يعتصم بحبل القمع فيأتي إليه الفاشلين صاغرين:
"لك السمع والطاعة يامولاي!"
"التعليم إستثمار خاسر!"
"نعم يا مولاي!"
"ليس صحيحاً أن العمل مفهومه قد تغير، وليس بامكان المجهود الذهني أن يحل محله!"
"هذا صحيح يا مولاي.."
فيحاول الأستاذ سامى شقيقه الأكبر تعزيته:
"أصبر يا خالد يا أخوي أنا باكر حا أمسك دروس خصوصية، ومع المرتب حيكون الحال ماشى تمام!.."

سامى يعانى ضيق الحال الذي يغني عن السؤال، والشيء الذى يقعي بين فخذيه يتعفن، شاب.. شايب.. عابد، زاهد، لم يغز العالم الفسيح لامرأة قط، يستحي منهن حتى في الأحلام، ومشروع الزواج اللعين، يبتعد كلما إقتربت نهاية العمر، الذي يمضي دون ثمر!..

طرق أبوعلي الباب، برهة، وأطل وجه الأستاذ سامي، تعانقا على الرغم من فارق السن، كانا صديقين قديمين، حميمين.. دلفا إلى الديوان..

وفي منتصف المسافة إنبثقت، لا بل تدفقت كانت جميلة.. ليست كنَوَّارْ، عصفورة البساتين والحقول!.. لم تكن ملامحها الرائعة تتجاوز ملامح فتاة في سن العشرين! تقدمت من أبوعلي بخطوات آلية مسرعة:

"أهلاً.. أهلاً.. مرحباً بالضيف!"

سلَّم عليها شهاب مأخوذاً، حاول معالجة دهشته. لم يكن قد رآها فى زياراته السابقة أبداً، دُهش أكثر وهو يلاحظ، أن حلمتي نهديها بدتا تتقافزان في توتر وقلق! كانت لا ترتدي سوى فستان النَّوم البيتي؟! على غير عادة أسرة خالد المحافظة، حاول ألا يهتم كثيراً، فتحاشى النظر، شعر بالقلق والحرج يحاصرانه تماماً! وهو يسر لنفسه:

"ليت الأمر ينتهى عند هذا الحد!"

خيبت الفتاة ظنه عندما دلفت معهما إلى الديوان!

جلس أبوعلي على أقرب كرسي، فجلست في الكرسي المجاور! تأكد تماماً من أن هناك شئ غير طبيعي، وأنه على أعتاب كارثة ستحدث!.. كارثة لا تبقي ولا تذر!..

أحس بالحيرة والتوتر والقلق يملآن أخاديد وجه سامي المتغضن.. أخذت تثرثر:

"أنت جيت من عمي خالد؟.. صحي استشهد!"

تقلص الإحساس بداخله و شعر بإنقباض حاد!..

لم يكن خالد الفتي القزحي، من ذلك النَّوع الذي يكرر مواسم هجرة الشلك، من شاطئ النيل الأبيض الغربي من بحيرة (نو) جنوباً إلى فشودة، ليست ثمَّة مبرر للإستشهاد و مزاعم الفردوس المفقود!.. وحلم دولة المنفى..

تدخل الأستاذ سامي:

"إيمان ده ضيف، خليك عندك دم.. حبوبتك بتناديك قومي أمشى عليها!.."

"ضيف ولا ما ضيف؛ أنا ستين مرَّة قلت ما عاوزة حد يزعجني، مفهوم ولا ما مفهوم يا أستاذ يا فاهم!.."

وأخذت تضحك بشكل هستيرى!.. ثم صمتت فجأة! وهي تقول:

"لو إستشهد كلمني يا ضيف، بالمناسبة إسمك منو؟"

تنرفز الأستاذ سامى:

"استشهد، استشهد، استشهد.. فلقتينا باستشهد دي، أخير ليك تقومى تطلعي من هنا"!

ولم تُعِّر ثورته إهتماماً:

"ماوريتني لسه يا ضيف؟!"..

"خليتو كويس في الجامعة يا آنسة!"

"آنسة؟ يآنسك الشيطان قول آمين!"

وانفجرت في ضحك هستيرى، وهي تواصل:

"أنا مجنونة يا دكتور موش كدة؟"

ثم صمتت فجأة وملامحها ترتخي في حزن بالغ..

كان أبوعلي في وضع لا يُحسد عليه، فكر فى طريقة للخروج، لاتجرح أو تؤذي مشاعر سامي وأسرته.. فكر ملياً، فلم يجد..

لم يكن ثمَّة طريقة للخلاص. بدى له جو البيت الخانق أرحم كثيراً من هذه الورطة!.. ما الذي جعله يصر على المجيء إلى هنا، فكر قليلاً.. لكن لو لم يجيء سيموت خالد جوعاً!.. كان سيصبح شهيداً للعلم والوجبات المستحيلة، فالداخلية أقسى من مناطق العمليات!..
لا يعنى الموت فى (سرايي□و) شيئاً فهو يأتي سريعاً وحاسماً، ولكنه هنا فى الداخلية يأتي بطيئاً وقاسياً، يستلذ بتعذيب ضحيته!.. كل الأشياء في داخلية الطلاب لا طعم، لا لون ولا رائحة لها ولا هوية مطلقاً!.. غموض خالص! لو كان الفقر رجلاً.. وإمام الجامع يصر على فلسفة الفقر.. إن الله يحب عباده الفقراء.. و.." وفي ذات الوقت يتمتع هو بالمآدب العامرة! فيما يحرِّض النَّاس على ربط البطون"، هكذا تتم فلسفة الأشياء!..
حتى الصلح مع إسرائيل يفلسفونه بأن الرسول الكريم، صالح اليهود في الحديبية!.. كل شيئ هنا يمكن توظيفه آيديولوجياً!.. يمكن فلسفته بالدين والتاريخ؟!..
نظرت الفتاة إلى سامي بقسماته التي إتسمت بالحزن والإحباط والحرج التام والحيرَّة، بدى مسقطاً في يده، لم يدري ماذا يفعل؟! على حين غرَّة، فاجأت أبوعلي، وهي تفرك إحدى حلمتيها بين أصابعها:
"تتزوجني.. هيا تزوجني!.."
تكهرب الجو تماماً وارتبك أبوعلي ودواخله ترتعش:
"الحقيقة أنت أي زول بتمناك.. بس أنا.."
"إنت كضاب.. أوعك تكون صدقت أني ممكن أتزوجك!"
"طبعاً ما مصدق.."
وعلى نحوٍّ مفاجئ إنفجرت:
"عبد الرحيم الحقير غشاني، قال حيعرسني وهرب، لكن لقى المصير البيستاهلو، كتلوه في الحرب.."
ثم أخذت تنتحب في حرقة، تدخل سامي في يأس:
"يا إيمان عليك الله خلي عندك ذوق.. أمشى بغادي.. ومواعيد (البخرة والمحاية) كمان جات.."
هتفت في حنق وهي تشيح ببصرها:
"محاية؟! محاية يا متخلفين، يا ظلمة.. أنا حقي خليتو لي الله (بخرة)؟! إنتو قايلني مجنونة؟! يبخروك بالشطة إنشاء الله.. دايرني أمشي بغادي عشان إنت وأمك تربطوني في (الشِّعْبَة) زي كل مرَّة وتجلدوني! الليلة أنا ما ماشة والبقرب مني بخسرو؟!"
كان الزبد قد تسايل من شدقيها.. أصبحت كالناقة التي ترغي، نمرودة، شرسة، هكذا بدت وهى تلتفت نحو أبوعلي:
"إنتا كمان يا زفت ما عاوز تتكلم، قلت ليك خالد عمي حيجى متين، حيجي هسع ولا ما حيجي؟!"
ثم أخذت تغني إحدى أغنيات التجييش، كان أبوعلي قد وصل قمة إرتباكه، وأخذ العرق يتقاطر من كل مسام في جسمه، ومن كل فج عميق!.. لم يكن الباب قريباً منه ليلوذ بالفرار! دخلت أم سامي مرتبكة يبدو عليها حرج عظيم، تمتمت:
"كيف حالك يا ولدى.. آسفين على الموقف دة!.. تقول شنو على البت مقطوعة الطاري دي؟! عيانة والزمن (دهوار) ياولدي.."... والتفتت على إبنة إبنها:
"قومي معاي بغادي يا بت.. قومي قامت قيامتك!"
"يا أستاذ يا فاهم، إتكلم مع أمك المجنونة دي، قول ليها بلاش إساءات.."..
"قومي يا بت الجن اليركبك، أكتر مما هو راكبك، قومي يا مصروفة دى حبوبتك!"
"خلاص خليها تطير مني كدي ولا كدي، خليها تنقشر من قدامي"
حاول أبوعلي تغيير مجرى الحديث:
"يا جماعة أصلو أنا جايي من خالد، وإنتو عارفين طبعاً ظروف الجامعة والداخلية..."...

فيما كان يتحدث، كانت إيمان تحدق في الشاي الذي وضعته جدتها على المائدة، بنظرة يصعب تحديد هويتها.. ثم فجأة على نحو مباغت كالذي يريد خطف شيء، مدت يدها تنقض عليه:
"عاوزين تشربوا شاي!.. والله عال تشهوا (الهبوب) انشاء الله!.."
وأفرغت أحد الأكواب في (جك) الماء البلاستيكى الكبير..
"أنا عاوزة أشرب الشاي كده، مزاجي كده، حرَّة ولا ما حرَّة!.."
"لكن ده شاي الضيف يا إيمان.. ليه بتعملي كدة يا إيمان؟!"
قال سامي بحنق، وسادت فترة من الصمت ثقيل الوطء.. كان كل يبحث عن مخرج خلالها، شعر أبوعلي أن اللحظة مناسبة للهرب، حتى لا تهب عاصفة أخرى.. تنحنح:
"الحقيقة يا سامي عندي إلتزامات لازم أقضيها باقي الليل ده، طبعاً عارف حال الطلبة لمن الواحد يجى مسافر، يدوه ستين وصية لأهلهم، وبعدين بكرة زي ماتقول كدة الواحد مسافر!.."..
"مافي مشكلة يا زول"..

محمد لم يعد حتى الآن، ترى أين ذهب؟ المسكين لايزال يمارس فوضاه اللعينة حتى وقت متاخر من الليل؟!.. قالت أمي:
"بعد ما إنت طلعت جا (تَكَلْ) الكارو، قال كاسرة بلي، وطلع تاني ما بان!"
المسكين محمد تحمَّل المسؤلية وهو بعد صغير، ناعم العود، كان قدره أن يحمل هموماً أكبر من عمره وتجربته، فكان من الطبيعى أن يتمرد على قدره!.. ترى ما الذى يدور في رأسه؟!.. لا أدرى كيف أنتشله من هذه الوهدة!.. لا بد أن أنتشله!.. لابد..
كانت أجفاني قد بدأت تتثاقل، فترتخي وخدر شفيف يحيط بي كهالة من الرزَّاز ويتبدى وجه نَوَّارْ..أغيب في دوائر حمراء، خضراء، ليلكية.. أدور وأدور ونَوَّارْ، تركض في مسارات حلزونية، وهي تنثر الندىٰ والرزَّاز وأنا أغيب هناك حيث البابور والنخلة والرابية والجدول!...

نَوَّارْ زهرة البساتين والحقول، أول أُنثىٰ أحببت وتفتحت عليها فحولتي.. نَوَّارْ، سليلة أرض الحراز، يحدها جنوباً خط العرض "إثناشر".. قالت ذات مساء:
ميلاد الحراز تزامن مع الزحف النخيلي الأول، لافى القرن (الإثناشر) الميلادى، كما يزعم بعض المؤرخين الذين يتعيشون من موائد السلاطين وتجار الرقيق ومستثمري سن الفيل وريش النعام!
ولا إبان الغزو النخيلي الثاني في القرن السابع من الميلاد، فالحراز ولد متدفقاً.. وفي كل مكان، عندما توالت حركات المد والجذر، خارقة حركة الشمس والقمر، وكل قوانين الطبيعة!..
هكذا ولد الحراز والبحر الأحمر يفيض، وبحيرات أثيوبيا تفيض، قبل ألف عام أو يزيد، قبل الميلاد المسيحي.. هكذا كان ميلاد الحراز يا أبوعلي شيئاً ما، بين النخيل والتيك والأبنوس، ولد هاهنا أصيلاً لامهاجراً، يبحث عن متكأ مهجور في طرقات القرى الناعسة، أو الخائفة من هجوم مباغت!
ولد الحراز في زمن تمردت فيه قوانين الطبيعة على الطبيعة، فأخذت وضع الشد والجذب، فاندغمت الفصول! وكان الحراز نمروداً يشكل المواسم كما يشتهي، وتركع تحت أغصانه الفصول، دون حاجة لتفاصيلها الطقسية!.. ومثل

الحراز لكثير من ممالك أفريقيا القديمة، العناية المقدسة يا أبوعلي، التي تعاقب السلطات بقسوة كل من يقترب ليمسها!
كان الحراز مقدساً فى أفريقيا يا أبوعلي.. اننى أحبك يا أبوعلي فأنت تحمل شيئاً من ملامح الحراز! لكنك أنت أنت في كل الفصول وهو مثلي يظمأ في الخريف، لعاشق لا يجهل هويته على مفترقات تواريخ الحب والبكاء!
هو مثلي يعشق المطر، لكن لا يسلبه المطر رائحته المميزة، رائحة الطين و(الجروف) المندية و(الدعاش) المشرَّب برائحة البحر وإيقاع البابور!
الإناث حور البحر يظمئن صيفاً يا أبوعلي، عند انحسار الموج، أما أنا نَوَّاَرْ والحراز صنوي!.. أبوعلى يا حبيبي.. يا شبيه الحراز.
أسبلت نَوَّاَرْ جفنيها على الرابية، إرتحل الغيم ليظل البحر بفوضاه، تنهدت:
يقال ياحبيبى أن أول من اكتشف الحراز هم بنوجرار، المنحدرين من سلالة فزارة وذبيان، أثناء غزواتهم المتكررة لديار (البقارة) والكبابيش.. حتى أقاصى دارفور، نشأت بين فارسهم (موسى ود جلي) والحراز ألفة بالغة المودة.
كان موسى لا يتكئ في رحلاته الشاقة إلا عند ظل الحراز!.. وكان الحراز لاينحني إلا لموسى!
نام موسى ذات نهار تحت ظل حرازة، فغدر به أحد (الجهنية) رماه (بسمندية) حادة، مشرشرَّة، فتدلت أغصان الحرازة التي يستظلها محاولة حمايته! لكن السمندية الحادة المشرشرة كانت قد أخذت موقعها على فخذ موسى. شعر بها ود جلي وأدرك أن أحدهم قد غدر به وهرب، فلم يعر الأمر إلتفاتة بل قال باستهانة:
"قرصة ضبان الخلا صبحت حارة بالحيل!"
ثم أكمل نومه غير آبه لبركة الدماء التي بدأت تتكون تحت فخذه!.. وبعد أن صحى نزع السمندية من فخذه وقطف حزمة من وريقات الحراز، ودعكها على الجرح فالتأم في الحال، منذها وموسى لا ينام إلا تحت ظل الحراز!..
وحدثتنى جدتي يا نَوَّاَرْ، أن جدها (محمد ود نوباوي) الذي قطع رأس بطل الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، غردون باشا، لم يشأ أن يعلق رأسه على سارية القصر كما أمر المهدي، بل علقه على شجرة حراز، لاتزال هناك قرب بوابة عبد القيوم!
علاقة الحراز (ببنى جرار) يا نَوَّاَرْ، علاقة دَّم ، كان شهماً وكانوا شجعاناً، كان يحارب المطر، النزيف، الزيف، وكانوا يحاربون الصَّلف الزائف لكل قبائل البدو الأجلاف!
لم يكن الحراز يتحمَّل غدر المواسم، ولم يكونوا يتحمَّلون أحداً!..
ومات موسى ودجلي بذات هذا الغدر الذى حاربه مغدوراً (ككليب)، وكانت اليمامة فى كل نساء القبايل يغنين فيه الفخر والحماسة والإعزاز، وطيفه يتجلى مبشراً فيهم، وممتطياً النَّوق العصافير حيناً والجياد الأصيلة البيضاء كقلبه حيناً آخر!
مسيرة الغدر والخيانة التي تغتال الشرفاء يا نَوَّاَرْ، لاحقت بني جرار فاغتالت فارسهم (جانو) حفيد موسى ود جلي.. سيف جانو ودرعه وضفائر أختيه، اللتين يتحلى بهما مقبض السيف، يقعيان ككلبان ذليلان في المتحف الوطني!
هكذا كان مصير السيف والدرع، الذي أذاق أبناء الإنجليز معنى الشرف والكرامة! يقعي كالكلب فى زاوية الجدار، لا يجد من يحمله ليقاتل!
السيف والدرع وضفائر (أم بريمة، الخريسة) و(جادينة، الغليسة) في المتحف الوطني يا نَوَّاَرْ، ولاتزال الضفائر محنَّاة كما البارحة، برغم مضي التاريخ وإنصرام الزمن!.. وتغير الاقوام، واحتلال الأرض والعرض!
كانت (جادينة) و (أم بريمة) تقاتلان كما الفوارس، عرفت سنابك خيلهما دياراً لم يعرفها الجغرافيون الذين عشقوا المكاتب (المكندشة)، التي تتكدس فيها المصاحف والمسابح الزائفة، واللحي المستعارة! وكراسى الجلوس الدوارة الفاخرة!.. ورجوع الشيخ إلى صباه، وكيف تقوي من شأن الباه!

(جادينة وأم بريمة) شبهى (اليمَّامة) إبنة كليب!.. لكن اليمَّامة لم تكن فارسة مثلهما، لم تعرف حمل السيف، وهما قد عركتهما الحروب وعركن الأيام، وكم جندلن الفوارس وخيولهن تنهش الأرض نهشا، لتشتبك رماحهن، ولا تعود سيوفهن إلى أغمادها، إلا وقد حسمت المعركة!

رجلاً كجانو تحدى (الجهادية السود)، لم يكن الخليفة ود تورشين ليستطيع مراسه، ولا كل قبائل الأبالة و البقارة، إنه حفيد موسى ودجلى يا نَوَّارْ، وأنت آخر كنداكات البلاد الكبيرة (جادينة)..

تزهرين على ضفائرها كل يوم فيتفتح النور والنَوَّارْ، فى أروقة المتحف القومى الشاحب! المكتوم برائحة التاريخ العطنة، تجددين الهواء وتملأينه بيمام وحمام، يحمل تباشير الشمس وروائح أعشاب النيل باردة المشم! والحراز أنت كنداكة الكنداكات (أم بريمة) وأنا لست بأقل من جدي المانجلك جانو حفيد موسى ودجلي، الذي غنته الحكامات في الشجاعة والاقدام، كما غنته الاميرات وحريم السلاطين العاشقات.

عندما أقتيد جانو للمرَّة الأولى بعد (كمين) محكم إلى المأمور الإنجليزي، لم يكن قلقاً أن يأتى مرسوم إعدامه، على ذات الورق الذي يصنع من أخشاب بلاده، التي يصدرها آل المهدي إلى أصدقائهم في مصانع لانكشير، في بريطانيا العظمى!

حبسوه في جب ضيق، وهو العربي الذي عشق الأرض المتجردة، وغنى صوت حوافر الخيل، واعتاد شرب لبن الإبل وحب النساء الشريفات!

لكن لم يكن قلقاً، تآمر عليه أبناء الإنجليز، فحبسوه دون ماء أو طعام، في اليوم الأول الذي اقتادوه فيه بعد هزيمته لكتيبة من الجهادية السود، كان معه إبنه حمد فهتف فيه:

"إن أمسن فى عناقرهن، وإن صبحن فى مناخرهن"..

فصاح الإنجليزى إبن الكلب:

"بتقول شنو يا متهلف!"

فرد عليه بعجرفة أعمق من صلف كل السلالات الانجلوساكسونية:

"ما بقصد شى ياود المرا"

لم يكن الإنجليزي المتعجرف، ليدرك أن كلام جانو لإبنه بمثابة أمر بتهريب الإبل، حتى إذا جاء المساء يكون قد قطع مسافة طويلة، وما أن يصبح الصبح إلا ويكون فى أرض بعيدة، لايستطيع أحد أن يجده فيها، وبالفعل نجح (حمد) في مهمته وهو الخبير بالصحراء والقيزان ودروبها الوعرة، الملتوية التي لايقوى (السادة) أبناء الإنجليز على معرفتها ومعرفة مخابئها وبواجيها!

وكانت تلك أول ليلة تمر على جانو، منذ تعلم الفروسية في نعومة أظافره، يبيت جائعاً حتى مساء اليوم التالي.. لكن لم يستمر حنينه للبن والسمن إذ (إنفج) جانباً من الجُب الضيق في الظلام وأتى صوت حمد الهامس:

"جانو.. جانو"

وتدلت قربتان محملتان بالسمن واللبن!

أربعون يوماً وليلة وجانو منسي في الجب، دون أن يطل عليه وجه، أربعون يوماً وليلة وجانو يتدفأ من البرد الزمهرير (بالكتر) ويشرب اللبن والسمن!

وحين خطر على بال المأمور الإنجليزي وتذكره، ظنه لا محالة مات، وأصبحت جثته بقايا أرماس دارسة، ولم تكن ثمة رائحة تنبئ بتحلل جيفة، أو مثل تلك الرائحة التي تصدر عن القبور القديمة!

وهكذا قرروا أن يفتحوا الجب، ففوجئوا بجانوأصغر عمراً مما كان، ناعماً أبيض كفتى من الحور، طويل الشعر أسوده، زادته اللحية الغزيرى وقاراً لم يخلو من فتوة شباب، فخاف المأمور الإنجليزي.. دهشوا.. تحطمت نظرياتهم عن الهيدروجين والبروتين والأكسجين والكربون والماء!

لا يفهمون كيف يعيش رجلاً أربعين يوماً دون مقومات الحياة ولايموت، كيف حطم هذا الرجل قوانين الجسم البشرى والكيمياء والفيزياء؟!
أشار أحدهم على المأمور بإستدعاء أحد البدو المتميزين بالفراسة ليحل اللغز، فبحثوا حتى وجدوا الأعمى الخبيث (كباسة) الخبير بشؤون البدو وألاعيبهم وحيلهم، توقف كباسة فى منتصف الجب، وتلمس جسد جانو، لحظتها كان حمد فى ثنية دهليز ما مؤد إلى الجب، يراقب الموقف!
كان حمد قلقاً تحدثه نفسه أن كباسة حتماً سيكشف اللعبة!..
إنسحب حمد وأتى من المدخل!.. كان قد قرر شيئاً، فوجئ به أبناء الإنجليز فحاصروه!.. فنظر باتجاه الأعمى وقد قرر مغامرة أخيرة!
واخيراً تحدث (كباسة) وأنفه يتشمم كالكلب، متحسساً المكان، ثم لم يلبث أن قال:
"شرابو بكر بت بكر.. ودفوه كتر"
عندها هتف فيه حمد:
"كباسة بت لبون تقطع قلبك!"
فاستدرك كباسة:
"فكوا الراجل ده صالح من أولياء الله، أطعمه من أطعم مريم أم السيد المسيح.. حيجيب ليكم مصيبة، فكوه.."
ثم رفع رأسه ويديه إلى السماء وهو يردد:
"مدد.. يا أولياء الله مدد.. مدد.. يا أولياء الله مدد..."
وتحطم صلف الإمبراطورية التي لاتغرب عنها الشمس، بثمن بخس، مجرد ناقة صغيرة!
لم يكونوا ليفهموا أن (بت لبون) ليست سوى بكر الناقة، وهي ثمن سكوت كباسة! وهكذا إنتصرت إرادة الحراز الذي ألجمهم الصمت، وذر في عيونهم رماد الكتر!
الحراز يا نَوَّارْ، هو ما تدفأ به جانو!.. إنه قدرنا نحن.. هو، والأرض التي تتمحور علينا.. أغنية لا تعرف الإنتظار الممض!.. تقاوم وتغني للحب!.. كل (الحكامات) غنين الحراز والناس (العزاز)..
وكل الأشجار غنت الحراز والناس العزاز.. وظلت الحرازة مناظرة للنخلة التي على الجدول تطل من الرابية، على البابور حيث نجلس يا نَوَّارْ، برغم أن زمن الناس العزاز قد إنتهى!

شهران مرا على هروب أخي الأصغر، والكارو لاتزال بعد متكئة على الجدار، والأفواه الصغيرة مشرعة.. الجوع كافر وكسرة الخبز طعام مستحيل!
"يكون عامل كيف هسع الولد ده؟!"
تنهدت أمى بحزن، فقلت بأسى:
"لم يعد صغيراً، ومع ذلك سأبحث عنه، فقط أصمدوا قليلاً.. تماسكوا.."
قالت أختي، التى تكبره في غضب:
"تركنا في ظروف صعبة، لم يقل أبناء أختي صغار يعتمدون عليٰ، وأختي مطلقة بلا سند!.. لم يتذكر شيئاً فلا تبحثوا عنه"
قالت أختى البكر بحزن:
"تلاتة سنوات ماسك الأسرة يا شهاب، والمسئولية كبيرة عليهو و(لِسع) هو جاهل صغير مغرور.. شال همو وهم غيرو.. صبر لكن ما قدر يستمر"

"لا تحزنوا سيعود إن شاء الله.. إننى أفكر فى حلول لكل هذه المشاكل، حتى هو يجب أن يرجع المدرسة"
إهتاجت التي تكبره:
"ده فاشل هو في حد قال ليهو خليها؟!"
"الظروف كانت ولا زالت زى الزفت؟"
"كان المفروض يتحمل.. الظروف دي على الناس كلها!"
قالت أمي من أعماقها بحرقة:
"الدراسة!"
فقلت بحزم:
"سأجمد الجامعة هذا العام"
"لن تجمد ولا غيرو! إنت ناقص؟! كم مرة جمدت لن تتخرج بهذه الطريقة!"
"لن أترككم هكذا وأسافر، سأعمل فى الكارو مؤقتاً حتى أدبر أمر البيت"
"لن تعمل في الكارو.. البيت له رب.."
قالت أختي وأضافت أمي:
"لو تركت الجامعة سآخذ أختك وأطفالها ونرحل إلى القرية، أخوانى.."
"خيلاني لن يتحملوكم.. لن يتحملوا هذا الجيش الصغير، ولن نتركهم يقولون إني عاجز عن تحمل مسئوليتكم!"
"....."
"أرجو ألا يناقشني أحد في هذا الموضوع مرَّة أخرى.."
كان أثر السهر والتعب والإرهاق بادي عليهما، كانتا تنظران للأمور من زاوية تختلف تماماً، وأبوعلى يفهم شيئاً واحداً فقط أن:
"الصقر إن وقع كُتر البتابِت عيب"
وكانا يفكران في محمد بشكل مختلف.. قلب الأم والأخت الكبيرة يلح في السؤال:
ترى هل أكل، هل شرب، حي هو أم ميت؟! وعشرات الأسئلة الأخرى تدور بخاطريهما! وفي ذات الوقت لايفهمان أن الطالب الجامعي إستثمار فاشل في ظل القوانين التي تصادر حتى حق الحياة، وأدنى الشروط الإنسانية!..
لم تكونان تستوعبان أنه سيتخرج بشهادة عطالة عن العمل.. وربما يموت فى الخدمة الإلزامية في الحرب ضد الجنوب، فيحتسبونه أونطة عند الله شهيداً، وربما لايحتسبونه!!
"ستبقون، وسأبقى.. هذا هو القول الفصل.. لا أريد أن يناقشني أحد في هذا الأمر.."...

تأوه الحمار بحرقة وشهاب أبو على يشد (اللجام) ويلكزه بقسوة تشرخ الأعماق، كان يود معاملته على نحو لائق، لكنه كان أحمقاً! حين يحرِّن لاتنجح قوة في الأرض على إقناعه بخطأ موقفه، أحس أبوعلي أن الحمار يود أن يقول:
"أن حمارين في بلد واحد ليس منهما نفع!.."
ها أنت تمضي الآن يا أبوعلي، يا آخر سلالات ذبيان وفزارة، ولكن ليس على صهوة جواد عربي أصيل كموسى ودجلي.. بل على صهوة حمار أشهب كغراب، كابى.. كئيب.. منكفئ النظرات!..
طرق على (باغات) الماء (بخرطوشه) الأسود! ليسمع النَّاس في بيوتهم نداءه.. فينادونه طلباً للماء!.. حمارين فى بلد واحد.. صحيح أن أنثى الحمار لا يمكن أن تلد إنسانا، ولكن أنثى الإنسان قد تلد حماراً!

نساء الأحياء الشعبية يتنادين عليه، يطلبن الرَّى للغياهب البعيدة المظلمة قبل (الأزيار) و(براميل) الماء، هكذا يغذي غروره الذكوري.. يفترض فى نفسه الوسامة الساحرة ، ويتخيلهن ينظرن إليه بشغف وهو يفرغ (الباغات)، مشرعاً عن فحولته وبداوته، فاتحاً أبواب الصفيح بقدميه المتشققتين، نساء البدو الأقحاح هكذا كن يفتحن أفخاذهن لموسى ودجلي وهو يجندل فرسان القبايل ـــكحل العيون، عشا البايتات وكحل السراري ـــ مشرعاً سيفه فى قلب الأرض لتتفطر عن مزيد من الحراز!

وها أنت يا أبوعلي تشرع خرطوش ماء أسود الآن!.. تتحين الفرص في الأحياء العشوائية، وليس ثمّة من تقدهن سبايا!.. تأمل أبوعلي نفسه في زي (العربجي) فتأوه أكثر.. أفكار حارقة تعتمل فى دخيلته، يزكي أجيجها الهمس الذى يدور فى الحي:

(الشول بت زهرا) وجدت في الخرابة مع أحد الكماسرة، مستلقين على حفنة دينارات وأمامهم قطع من السمك المحَّمر والمشهيات والخبز الطازج مع فرخة مشوِّية!

(محمود ود حسين باشري) ترك المدرسة وأشتغل ببيع الجرايد، فوالده الموظف لم يعد يقوى على دفع الرسوم الباهظة!

عم (محمد أحمد) بتاع المعاش المتقاعد إنتقل إلى رحمة مولاه بطريقة تراجيدية مؤلمة!..

البت (سعاد) بنت الجيران الفارعة البيضاء، حبلت، ولم يعرف صاحب الفعلة حتى الآن!.. لكن المرشحون لهذا الأمر ثلاثة، بينهم المرحوم محمد أحمد!

عم (حامد) بناته الثلاثة يدخلن الرجال إلى بيته على مرأى ومسمع منه ومن جماهير شعبنا! وفمه الممتلئ بالخضروات واللحوم والفواكه يجعل خروج الكلام عسيراً!.. يقال والعهدة على الراوي أن ثلاثتهن اعتدن الحمل سفاحاً لأكثر من مرَّة! ولا أحد يستطيع الحديث وهو يلوك الطعام؟!!..

(حليمة) ذات الأربعة عشرة ربيعاً بجسدها الفائر المتمرد، (حليمة) المراهقة الجميلة هذه، والتي كثيراً ما داعبت خيال شيخ عمران إمام المسجد.. وكانت عندما تحمل اللبن من البقالة فتمر بحلقة العلم التي يقيمها أمام داره وهو يتحدث كعادته في موضوعه المفضل (الغرانيق العُلي) ويكرر أن النساء فتنة والشيطان خبيث، تقدم إلى أهلها، ليزيد عدد النساء في حبله، خمسة بعد أن طلق إحداهن لأجل حليمة! فالرجل على حبله ثلاثة ويشتهى حليمة رابعة!..

والتي لطالما حاول شراؤها، وفي المرَّة الأخيرة من محاولاته الدؤوبة، قذفته أمها بحلة العجين وهي تدعوه "بالعجوز المتصابي!"

حليمة الرائعة هذه، ملكة جمال الحي، قبض عليها مع صبى ورنيش في مرحاض الجامع!..

تزوج عمار أخيراً بعد أن جمع له أبناء الحلة وأصدقاؤه الأوفياء والأدعياء ما يكفي لإتمام العرس..

قيل انه إستطاع القبض على لص فى اليوم الثالث لزواجه، كشفوا عنه النقاب، فاتضح أنه أحد الأصدقاء الذين كانوا من أكثر المهمومين بقضية عرسه! فتم تجاهل الأمر حتى لاينسحب على بقية الأصدقاء الذين حفيت أرجلهم وراء جمع التبرعات!

وبالرغم من الحرص على ألا تصل القضية إلى الرأى العام، إلا أنها تصعدت بالفعل وتم تدويلها!..

(عثمان) صاحب الطاحونة لاتزال مغامراته مع الغلمان تتوالى، قيل أنه يستغل فقرهم وحاجتهم فيشتريهم بالدقيق والذرة، الجدير بالذكر أن أحداً لم يعد يصلي معه في (الضرا) أمام المنزل!..

زوجته الصغيرة الجميلة تخلت عن الحجاب، والعباءة السوداء التي تغطي جسمها الأبيض فجأة، ولم يدر أحد سر تغيرها المفاجئ هذا، ولم تدلي هي بأي تصريحات، لكن نساء الحلة (النسناسات) لا زلن يجرين البحث، ولازال التحقيق مستمراً، ولربما يتجاوز في المرحلة القادمة (قعدات) الجبنة إلى حد تكوين لجان تنبثق عنها أخرى لتقصِّى الحقائق!؟!

(مسعود) ترك الجيش وأصبح تاجر حشيش، لتأمين كسرة الطعام للأفواه الجائعة التي تركها والده وهرب مع إحدى العاهرات دون حياء!..
يُقال أنه يخبئ الحشيش في سطوح الغرف، وتقديراً من عملاء المكافحة لوضعه البائس، يكتفون بأخذ بعض سيجارات حشيش منه، مع بعض الأوراق الملونة، التي يتهامس البعض مشككين حول قيمتها النقدية!..
(عم أب شيبة) رحمه الله، العربيد، السكير، توفي إثر علة لم تمهله طويلاً!.. في تقرير الطبيب الشرعي، أنه مات بسوء التغذية، فيما ملأت شائعة الأجواء، مفادها أن الكحول الذي تجاوز فيه جسمه مرحلة التشبع، هو السبب!..
إستغل عم محمد هذه الشائعة فتوقف عن شرب الخمر زاعماً أن الاعتبار بقصص الآخرين من حُسن الدين:
"والبشوف في غيرو أخير من البشوف فى نفسو.."
فهو لايريد أن يلاقي مصير أب شيبة بهذه الميتة، رغم أن الجميع يعلمون أن كل ما في الأمر أن عم محمد المدمن أصبح لا يستطيع أن يوفر ثمن كوب من الخمر، ناهيك عن زجاجة كاملة هي متوسط سعته الرسمية!..
والحقيقة التي كان يعرفها شخص واحد فقط، أن الرجل توفي بسكتة قلبية، بسبب جرعة فياجرا زائدة، كان قد منحه أياها مجانا مع فيلم جنسي، أحد خبثاء الحي!
هذا كل ما في الأمر بإختصار، فعم محمد كان قد توقف عن تدخين السجائر الذى إرتفع سعره أيضاً ولجأ إلى القمشة والتمباك، بحجة أن التدخين ضار بالصحة وهذا يؤكد ما أوردنا من مزاعم السكتة القلبية!..
(صفية بت حاجة ختمة)، لم تستطع أن تقنع إبنتها الصغيرة شاهيناز، تلك التي يؤكد كل المراقبين أنها مشروع إمرأة لعوب.. لا محالة ستقض مضاجع الرجال!..
لم تستطع أمها إقناعها بعدم الخروج من البيت، وفي ذات الوقت رفضت تزويجها من إبن عمها الفقير (الكحيان) إلى أن حدثت الكارثة! وكان إبن العم قد تزوج وبإنتظار المولود الثاني!
(حاتم) العسكري، أرجع زوجته التي طلقها منذ عام بسبب الأوضاع الإقتصادية المتردية، لم يقتنع بكلام زوجته حسناء الحي، بأنها ستصبر وإن الله سيفرجها، لأن قناعته كانت "تزوجوا فقراء تشحدوا سوا!"..
وعلى الرغم من مزاعمه بأنه طلقها لأسباب إستراتيجية تتعلق بخلافاتها المستمرة مع أمه العجوز وأختيه العانستين، إلا أن التاريخ الشعبي الذي يتأكد صدقه غالباً وتناقضه التام مع التصريحات الرسمية، سجل المسألة على نحو ما ذكرنا!
والحق لله أن الجميع يؤكدون أن زوجته أميرة وبت أمراء.. توقف الحمار بغتة فضربه أبوعلي بقسوة!

هنا على هذه الرابية كنا نلتقى أنا ونَوَّارْ، فنتناجى كعاشقين بعد أن سلبنا الوجد الإحساس بالزمان والمكان أو.. ويأخذنا التعب والإرهاق ونحن نركض خلف العصافير.. كان لهواً طفولياً، وما بالقلب أكبر من شقاوة الأطفال!..
أصبحنا نكتفي بالجلوس تحت الحرازة، نلعب السيجة والبحر يسبح فينا.. يسبح حتى يغرق فننتشله ضاحكين!..
كبرت يا نَوَّارْ، وتفتق الجسد عن إمتلاءات شدت تجاوب الحراز إليها.. لم تعد تقوى على الركض، فالصدر الذي استوى بإرتجاجه يؤلم الجسد الممشوق في كبرياء حرون، والعجيزة تثقل على الجسم!..
وصارت الطفولة بذكرياتها الحميمة دافعاً للركض في الدّم، ومطاردة عصافير لا تبارح القلب!.. نوار، الصبية التي قدمت من مكان ما، في زمن ما، حلت في داخلي بشكل غريب نَوَّارْ، أنثى الحراز والأبنوس، إحتواها شيخ بابكر "لكنها كانت بت الحلة كلها"
بل وبدرها المنير، حين يسلب الغيم السماء نجومها وقمرها الضَّاوي.. خلَّفها القطار وراءه ورحل، مثلما خلَّفت جُهينة الكبرى أشتات البدو الأقحاح! ومثلما طوى التاريخ سلالات بني ذبيان وفزارة.

أطوارها الغريبة كانت تهزمه: شيخ بابكر ممثل التاريخ الرسمى لدولة الصحراء واللحي! كان أيضاً غريب الأطوار إلى حد الفجيعة وهما نقيضان. فهو قد يمم وجهه شطر إبن تيمية وهى تخبئ بين أستارها سبحة لاتفارق صدرها المتمرد أبداً؛ حيث تكمن قباب سنار القديمة وكل الإسقاطات الطقوسية لمانى وومزدك وزرادشت فى تعاليم البهاري! لم يكن لأحداً أن يدرك عنها شيئاً سواي، لأنها لا تسبح إلا أمامي!.. وجهها يضيئ جميلاً، حين تهتف بسيدها القوس أو قطب الأقطاب، قوت الزمن..

هالة خضراء تحيطها حينها كالملائكة الكروبيين، هالة منقوشة بالحناء والحنين، مسدل عليها جلابيب وطواقي سيدي عبد القادر الجيلاني كما كانت تقول!

لم يكن شيخ بابكر ليعلم عنها شيئاً، ولا كل من في الحلة يعرفون نَوَّارْ، سواي!.. شيئ واحد كانت تشترك فيه نَوَّارْ، مع شيخ بابكر والآخرين: هو أن الجميع ينتمون إلى ملوك الطوائف، لم يدافعوا عن دويلات المدن وهى تسقط.. واحدة تلو الأخرى! إختبأوا في أحضان زوجاتهم ومدن الحضارة تسقط تباعاً واحدة تلو الأخرى!..

كانوا يلوكون حسرتهم في بيوتهم ينتظرون الفرح ومجد (الزلاقة) يتضائل، يتلاشى، وكان الغزالي حينها منشغلا بكتابة تهافت الفلاسفة، مغلقاً أذنيه بالكتاب! لم يصمد سوى المعتزلة.. تصدوا للجيوش الغازية تخضبها دماء عيسى!.. قاتلوا عن مدن هرب عنها فلاسفتها وشعرائها، ملوكها السفهاء وحاشياتهم! جواريها الماجنات وغلمانها المتلبين! وتماماً مثلما سقطت سنار تحت سنابك جيوش الغزاة المصريين، يقودهم البان محمد علي!..

كان إدعاءاً كاذباً ، فليس ثمة (.. رجال صابرون على القتال بكرة وعشية..) بل همج يتقاتلون على الدولة وإقطاعيات الملك وحريم وجواري القصور.. كرر التاريخ نفسه! ففي اللحظة ذاتها التي دكت فيها سنابك خيل المغول بغداد.. كان عقلاً جباراً يخطط لإسقاط سنار، لينهار الحراز ويهطل الدم مطر وتتحول المدن وبيوت الصفيح والقش والطين اللَّبِّن إلى رماد وتجعل الطريق مشرعاً، لتؤسس للظلام ممالك تجيد الإنحناء للملوك السفهاء في أوربا:

"الدين الرقائق يا أبوعلي!"

ياااااه.. تنبثق نَوَّارْ من قلب الفجيعة والرماد، حاملة في دواخلها أثراً لبشاعة ألبان محمد علي والأنجليز وحكام مصر الغزاة، وليالى الرُّعب عند مقتل (سير لى ستاك)..

تنبثق نَوَّارْ، مهشمة الحنين تستلبها تواريخ الطوائف والمذاهب والديانات القديمة، فتبني عند البابور دولة للقرامطة، يفشل كل عسس السلطان فى إكتشافها! يفشل كل أبناء الإنجليز الذين تربوا بين أحضان التاج البريطاني فى الكشف عنها!

ياااه، هذه اللبوة.. النمرة، النمرودة أكبر من سنها بكثير، كالحراز مجهولة العمر، تتفتق عن دفق وألق لايستطيع السياف (مسرور) إيقافه أبداً:

"لا هيت لك، من أين لك كل هذي الحكايا يا نَوَّارْ؟!"

"من مدرسة الفجيعة!.. فصول سنار القديمة.. الأساتذة الشيوخ المثقفين.."

"لكنك كنت في رحم الغيب، فكيف؟!"

"بل كنت نطفة في رحم الزمان أنمو ببطء شديد، وحواسي منذ نشأتها منذورة للوقت، تعي ما يدور.. كنت فكرة في خاطر كيرا، (نينا)، وكنت..."

أنا نَوَّارْ سيدة الحرَّاز.. رَّحل قطار الانجليز والغرباء بداخلي ولم يرحل عني الزمن.. والسكة الحديد كشوكة الساعة والقطار لازال يتكئ فى محطته الأخيرة، داخلي..

نَوَّارْ، أنثى الشفق والدم والدمع والجنون!.. كنا طفلين نرعى الغنم معاً، كانت تمضي باكراً نحو البحر وأذهب أنا فى الدوام المدرسي.. ألحق بها عند نهايته.. وكان البحر حينها يسعني ويسع أحلامنا.. ونَوَّارْ، مع الأيام تتفتق عن أشياؤها القصوى، وأتفتق عن أشيائي، أشياؤها السرِّية، حيث تضرب بجذورها فى أراضي التيه والواق واق، وفي الأعماق تكوِّن تضاريسها المتمردة على أجسادنا، ملامحاً تعبر عن نفسها، تغزو ممالكاً ليخرج الضوء شفيفاً كالجرح يتفتق جسد نَوَّارْ، عن بداوته وبدائيته القحة وبدايات التيار!

"رأيت سمح الشمايل سيدى قوس الزمان! بشرني بعلي كما بشر المعقور بسلالات حبيبته الكيرا.."

"لا أفهم؟!"

"أمرني بأن أتزوجك وأنجب منك علي، تطلقني ويذهب كل منا في حال سبيله!"

لن يذهب الزبد جفاء يا نَوَّارْ، يا أخت القمر، سليلة أرض الحراز وبدرها المنير! ليذهب (سمح الشمايل) ونبقى نحن على الحب والساقية والباجور!

كنت دهشاً لا لأن الجميع ينظرون إلى نَوَّارْ، كخادمة ولا لأنها بلا أهل سوى –حب المصطفى عليه السلام– كما كانت تؤكد بإستمرار!.. ولكن لأنه لم يخطر ببالي أبداً أنني سأتزوج ذات يوم! ويكون لي أولاد!..

كان الحلم بعيداً لمن في مثل سني ونَوَّارْ، لكنني لم أكن أطيق خيول الإنجليز تأتي وبواخرهم تعبر النيل تسقط القرى والمدن ومدافعهم تهدم الطوابي!

لم أكن أطيق صلف الدفتردار وعنجهية إسماعيل باشا.. لم أكن جباناً وأقل من مستوى الحلم الجميل!

"نتزوج!"

وخطرت على البال تحذيرات أمي:

"أبعد عن نَوَّارْ، يا ود.. أنت كبرت، والبت كبرت إنتو ما شفع زي زمان!"

وسرَّبت لي أمي شيئا من مخاوفها التى تراها في الحلم:

"شفتك إنت ونوار وبينكما دغل من الحراز الأحمر.. الله يكضب الشينة!"

وفي مرَّات أخرى:

"كان بينكما بحر وفي منتصفه عجوز تمشي عليه كالصرح الممرد وكأنها لا تمشى، فلا هي إقتربت من الضفة التي أنت عليها ولا إقتربت من الضفة التي عليها نَوَّارْ!"

"أهى جدتي يا أمي؟!.."

فتتأملني مليا:

"ربما يا ولدى.. ربما!.."

ثم لم يكن ثمة شاهد على زواجنا سوى الله!.. ذاك المساء قالت والعصافير تسبح في دمها فيما تغرد في دمي، وتسيل على شعرها الأسود الطويل أنغام الأغاني الالهية، وعينيها تزقزقان بفرح مؤمنين الجنة، وعطر الجنة الخفي ذاته يحتضن المكان، فيضفي عليه بهجة الجنون والسحر والحنين للحظة بدء الخليقة..

كانت حواء وكنت آدمها، في ذاك المساء المشبع بكل فحولة ذكور الكون الذين لم يولدوا بعد.. في ذاك المساء المشبع بكل أنوثة إناث الكون اللاتي لم يولدن بعد.. في ذاك المساء كنا محض ذكر وأنثى لا ثالث لنا!

كإمرأة لم تعركها الأيام.. قالت بحذر، وإرتباك:

"لنتزوج.."

فأجبت مسحورا:

"لنتزوج!"

كنا على الرابية وأمامنا البابور يضخ الماء على (السرابات) عبر عملية معقدة تتكون من شبكة من الجداول المتفاوتة العرض والعمق والطول، قرأنا كثيراً من القرآن وصلينا ركعتين لله!.. وكان الله شاهداً، كل ما تم من أمر كنت أنظر إليه ببساطة!

ذاك اليوم لم نبارح الرابية وشجرة الحراز حتى مغيب الشمس، كانت نَوَّارْ، قبالتي أمامنا البابور وتحتنا الرابية وشجرة الحراز مشربين بالوجد.. قالت نَوَّارْ:

"هذه الحرازة!"

"ما بها؟!"

"أحفر عليها إسمك وسلوى وعلي"

"من تكون سلوى؟"

"إنها خاتمتك.."

نظرت إليها في تساؤل عميق.. كانت قد لاذت بصمت أعمق...

هذه الحرازة نمت بعد أن نزح (الشلك والنوير) جنوباً وصار يؤرخ بها للمدينة، يقال لك سنة الحراز فتفهم ما يعنون!

"وما علاقة ذلك بسلوى هذه؟"

"الآن ستؤرخ بها لهجرتك نحو مواسم لايغيب عنها الوجد والأحاسيس المخملية"..

وعميقاً ينسحب الصوت ليلوِّن الحراز بمواسمه المموسقة مع إيقاع البابور والجدول:

"لنتزوج.."

"لنتزوج.."

كان الخدر يسري، يملأ فراغات المكان ويفيض.. دوائر ملَّونة مشحونة بالشجن الملتهب اللاهب، تدنو لتلتقى وخرير الجدول.. يتسرب النفس مشعلاً فيها رائحة الجروف والأرض والتراب والطين والحرائق المثمرة..

"ما بك يا أبو علي؟!"

"لا شيئ.. سيدى قطب الزمان يحجبنا!.."

ما من جسم له لدونة جسم نَوَّارْ، وما من ثغر له عذوبة رضابها، وما من جسد متفجر بالأحاسيس العارمة مثل جسدها التظاهر الهتاف، الجنون، والجحيم الممتع، وليست ثمة شفاه شهية كشفاهها العسل المصفى، و.. كنا قد ضقنا ليتسع الطريق!..

نَوَّارْ، لم تكن مثل جنيات البحر أو حبيبات عمر بن ربيعة أو أوعاهرات الشام! ولم تكن مثل اليمامة، أو ولادة بنت المستكفى، تخون إبن زيدون وتعطى قبلتها لمن يشتهيها وتطفئ مصابيح الغوطة، ليعم الظلام إشبيليه وقشتالة وقرطبة وقرطاجة، فيهرب العرب من الأندلس مذعورين ويتحطم حلم دولة المنفى بين أحضان عاهرة إسبانية!

نَوَّارْ، كانت دولة المنفى ذاتها والصدى للقادم من مجاهيل الحراز يبحث عن هويته بين أسداف الذاكرة، ذاكرته الملحقة بالبحر والصحراء والنخيل والغابات!

نَوَّارْ، حملت فى رحمها ملامحاً للذي في الغيب يحمل سيف موسى ودجلي من المتحف الوطني عندما يكبر ويحارب جيوش الظلام فيعلق ضفيرتي (الغليسة) و(الخريسة) بديلاً للعلم ورايات القصر الجمهوري!..

كان علي يكبر، وليس ثمة نطفة في أرض الحراز في تلك اللحظة تنمو إلا وإستقت ملامحها منه..

"حان وقت الرَّحيل يا أبو علي"

"إلى أين؟!"
"هكذا أنتم الرجال، تنسون العهد وتخونون المواثيق!"
"كيف يا نَوَّارْ!"
"ظننتك لست كشعبك"
"وما له شعبى يا نَوَّارْ؟!"
"ضعيف الذاكرة!"
"بل هو بلا ذاكرة!.."
ورحلت نَوَّارْ.. وكنت وحدي ثم وحدي!.. لا لا، لا أدري ماذا كنت؟ فقط لحظتها أدركت أنني لست كموسى ود جلي!
"هذه الحرازة عندما تخضر خريفاً تزوج من سلوى!.. هى شبهي!"
"من تكون سلوى يا نَوَّارْ؟!"
"لا تتعجل معرفة الأمور قبل أوانها فما هو كائن سيكون!.. فكرة فى خاطرها أنا.. إنها أم علي"
"الحراز لايخضر خريفاً يا نَوَّارْ!"
"الخريف بداخل الحراز يا أبوعلي، كل الفصول بداخلنا نحن"
"للطبيعة قوانينها يا نَوَّارْ!"
"أيضاً هذه القوانين بداخلنا"
"لم أعد أستطيع فهم شيئ!"
"بل تفهم كل شيئ!"
"نَوَّارْ؟!"
"عندما يخضر الحراز خريفاً سيكون أحدنا قد مات، إن لم تكن أنت فتزوج من سلوى"
الحراز إرتبط بالنصر والهزيمة، بالقتل والدَّم والثورَّة، هكذا كان هكس مختبئاً أعلى حرَّازة في شيكان، قتلوه فيها وعلقوا رأسه على مشارف الرياح والصَّباح!
"أحدنا سيموت يا نَوَّارْ؟!"
"لست أنت على أي حال، سلوى، تنتظرك لتزرع في رحمها العصافير والأطفال والحلوى، أنها الأرض وباطل كل ما قاله علماء الفلك والفيزياء"
"نَوَّارْ؟!"
"ستجدني قربك دائماً عندما تحل بك الكروب ويضيق بك الزمان والأهل والوطن. أحبك.."..
وكانت تلك أول وآخر مرَّة تقول فيها أحبك.. رحلت.. وكان الجميع سواي لا يعلمون وظل الأمر سراً كحياتنا التي يتعمد تاريخ الدولة على تجاوزها، كما اعتاد تجاوز كل الحقائق والأشياء الجميلة!
لم يكن سواي يعلم عن نَوَّارْ وعوالمها الميتافيزيقية، المخملية، الساحرة شيئاً! الجميع يعاملونها كجاهلة، رحل عنها القطار والأهل وتغولها آخر المساء! وحدي كنت أعلم أن القطار كان بداخلي والسكة الحديد تتكئ علىَ ونَوَّارْ..
لم يكونوا يعرَّفونها جيداً، الجميع، حتى شيخ بابكر نفسه، كلهم يعاملونها على أساس فهمهم لها بإفتراضاتهم فيها، ووحدي الذي كان يعرفها جيداً!
كثيراً ما تساءلت: لماذا إختارتني أنا بالذات؟!.. ولم أصل لجواب أبداً!.. فأنا لم أكن أحمل ملامح ود جلي، الذى حزن لموته الأعداء قبل الأصدقاء، وبكته نساء القبائل كلها!
كن ينتظرن موسى ود جلي غازياً ديارهن، هازماً فرسانهن ليأخذهن سبايا لو تقاسمن تقاسيمه لتمدد الوهج وغنَّت الحكامات مثلما غنَّين بعد ذلك بوقت طويل:

حليل موسى ياحليل موسى
حليل موسى الأمو جاموسة..

أخذت نَوَّارْ تحكي عن تلك الليلة، التي إنتقلت فيها إلى خاطر نينا الجميلة:
لم تكن مثل تلك الليالي التي يعطف فيها مارتجلو على شعب الوادي، فيحفهم بصوته العميق الآسر، ولا أحد غيره، فكل النَّاس ناموا على غير عادتهم، كانوا ينتظرون مثل هذا اليوم بفارق الصَّبر، لكن مرَّ اليوم فى ذلك الشهر عادياً تماماً!.. فلم تقام الإحتفالات البهيجة تحت ضوء القمر الفضي، ولم يهتم أحد (بدلالينق البقو) ولم يرقصوا (الكسوك وأبيرة ودَّرَّت)..
لم يغنوا للنِسوَّة الفاتنات ولم يستحموا في الوادي أو يتعطروا كعادتهم!.. ولم تلبس المراهقات الفاتنات ذوات الصدور العارية تلك (الكنافس) المميزة والأستار المحلاة بالسعف وجلد النّمر والأصلة وخرز العاج.. مرّ اليوم عادياً تماماً، كأن إتفاقاً مسبقاً، غير معلن قد جرى بينهم!
كان يوماً مشبعاً بالغموض، هكذا أحس به الجميع!.. وكانت الأصوات المنبعثة من كل مكان قد أخذت تخفت شيئاً فشيئاً، سكنت الحركة تماماً في حلة شعب الوادي أسفل المارتجلو ذي الطائر الضخم!
تململت نينا لحظتها في نومها العميق. لم تكن تدري، أنني أولد فيها، في تلك اللحظة بالذات!.. تنهدت، وصوت نَوَّارْ ينسحب لتملأ سلوى تجاويف الذاكرة..
"آه، تقصد تلك اللوحة!.. نوار ذاكرة الحرَّاز البَّرى رسمتها في جبال النوبة، في الرحلة السنوية لكلية الفنون"
آه نَوَّارْ.. لاتزال غامضة هي عوالمك، كلما ظننت أنني اقتربت تزدادين بعداً!.. أهي أمك تلك النوباوية (الصَّمَة) التي رأت موسى ود جلي يهزم فرسان قبيلتها ويسوقهم أمامه حتى (سودرى)؛ فيترك الرجال هناك ثم يرجع بهن إلى مضاربهن، فغنت له الفحولة والموت والإقدام، وغنَّت له الشجاعة.. والموت الذى يشفق على الحياة ويرفض أن تكون ذليلة، كما غنَّت من قبل ومن بعد نساء القبايل، فأهداه ملك النوبة هذه المغنية العاشقة المتدلهة!
هذه المغنِّية التى لم يمض يوم إلا وتحكي له عن شهريار الجبال وشهرزادها، بلغني أنها انجبت له نوباوي الذي قطع رأس غردون باشا وعلقه على شجرة الحراز المتكئ على النيل، يحرس عبد القيوم حارس البوابة، الذي لا يفارق نظره عبر النيل، سارية القصر الجمهورى.. دار الحاكم العام كانت نظرتها تخبئ رحلة السلالة الهاربة من الإستسلام للترك يا نَوَّارْ..
"فمن أنت؟!"
سألت الفنانة التشكيلية:
"وإبنها علي؟"
"أنه معنى، وليس جسد! مثل تلك الفكرة، فكرة المنقذ المنتظر!.. التى عاشت طويلا ولا تزال فى عقائد الناس عبر الكون الواسع!"
وحكت وحكيت.. كانت نوار تعيش بيننا، تدير الحوار، تتنفس هواءنا ونتنسم رائحتها، ثم قالت سلوى:
"أخشى أن أكون في حلم أو أنا نفسي مجرد حلم في المدى اللامتناهي للفناء، وما عليه الآن ليس سوى طاقة محض.. شكلَّت الجزيئات التي تجسمني!"
وكانت نَوَّارْ ماثلة كالمجد الزاوي في نفق التاريخ لاتزال هالة خضراء من الضوء.. كالهالة التى تحيط بالملائكة الأربعة الكروبيين!..

أنه شيخ تاج الدين البهاري يا أبوعلى، لايزال يلاحقك.. يفصم ذاكرتك، يعبئك بالميتافيزيقيا، لتظل حائراً على مفترق الأنثربولوجيا الدينية نَوَّارْ!..
أنت لست موسى ود جلي الذي رفض أجمل النساء لأنها قالت له:
"راقب لى العيش ده!"
تعوَد أن يحرس قبيلته وكل القبايل فكيف تطالبه امرأة بأن يحرس الذرة!.. تركها قائلا:
"حرمانة علىَ!"
ولم يستطع جمالها الدفاق أن يشفع لها، لم يستطع حسنها ثني قراره.. وها أنت الآن.. نظرة من نَوَّارْ تحيل ليلك نهار ونهارك ليل.. تحيل شتاءك ربيعا ومطر، والثلج الذي بداخلك يتحول إلى حمم بركان لافح، تستمد منه كل براكين العالم صهدها!
وانت، ها أنت تصارع البهاري لأجل أن تنفك منه، وتصارع لأجل البقاء، خاض معك البهاري معارك المسلمية والبقارة وبني جرار وسلالات ذبيان وبني وفزارة المنقرضة!
دخل مع الغزو التركي المصري ولم يبارح باحتلال الإنجليز للأمصار، إنه البهاري يا أبوعلي، وأنت لست المأمون، وليست ثمة دار حكمة تختط للضوء طريقاً في زقاقات التاريخ وأقبيته ودهاليزه!
"المأمون ذاته لم يكن بريئاً!"
هذا صحيح، كان يريد الإحتفاظ بالسلطة.. السلطة يا أبوعلي، هذه اللعنة التي تلاحقك!.. تلاحق دمك.. لاتهتم يا أبوعلى بفارق الزمن، فالنتيجة واحدة والعدو واحد!.. كن كإبن رشد الذى كره الظلام.
كان إبن رشد يريد أن يخرج من الظلمات نور رغم أنف إبن سينا المتكئ بين عرصات حرَّان، بين تلافيف الغنوص والظلام فى خدمة البهاريين الذين يهيئون كل أجهزة الدولة الأيديولوجية الملتحية التوظيف، لقرون قادمة!
آه يا أبو علي نَوَّارْ تهاجمك، تتوغلك.. كأن فوقك الستار وتحتك الستار وخلفك الستار وبين بين لحظة من سجن!.. البحر أمامك و العدو خلفك..
نفض أبو علي الغبار عن اللوحة، فيما كانت تتطلع إليه ملياً.. كانت تجسد نَوَّارْ بواكير القطن و لعنة (الشرافة والهجرة) في خلاوى الغبش!
نفض أبوعلي خيوط العنكبوت عن اللوحة، إكتشف لأول مرة أن الطقس كان خريفاً و الحراز نخيل!... وضع أبوعلى اللوحة جانباً فيما كان شقيقه محمد يدخل عليه الغرفة، واطئا على دائرة وحدته و تداعيه، نهض.. اقترب منه، احتضنه، وقال بصوت خفيض:
"سأنسى قصة هربك بشرط أن تكون الأخيرة.. لم يتبق سوى القليل و ينتهي كل شئ"
"أنا آسف"
"لا تهتم، يجب ألا تتهور.."
"سأعود إلى المدرسة"
احتضنه.. عانقه.. أبو على بشدة.. أكثر.. وكانت أربعة دمعات، تتعانق في فراغ الغرفة!..

توسط البدر المنير بضوءه الساحر، مارتجلو، وأحاط به تماماً، كان كل شيء ساكنا.. إلا آدمو الوحيد الذي لم تخبأ نار وجده أو داره!.. لم تسكن حركة دواخله المضطربة، بشوق ملتهب لنينا الجميلة ذات الألق البرى المميز..

رغم إنشغال آدمو بحبه العميق إلا أن إحساساً داهماً هاجمه، إقترن بالحلة الوادعة أسفل الجبال الأربعة لمارتجلو. لم يكن يدري كنه هذا الإحساس، فقط شعور بعدم الإرتياح والترقب أو..
تتسارع أنفاس آدمو وتصطرع في داخله مدينة مشتعلة بركامات اللاوعي السحيق.. تناسى آدمو أمر الإحتفال البهيج الذي لم يقام وانشغل بمناجاته لطيف الفتاة المنعمة (نينا) سليلة (الكيرا) التي سار بصيتها الرِّكبان!
ملأت عليه نينا كل دنيته ودنياه، فلم يعد يرى شيئاً إلا عبرها، ملأت عليه قسماته التي خددتها تجاريب الجغرافيا الملأى (بالتقاقيب) والحروب والطبول العالية فأكسبتها خبرة ودفق وقسوة..
لم تستطع أنثى أن تتسربها سوى نينا وحدها بصدرها العاري، العالي بحلمتيه السمراوتين. ذلك النور الذى يشع من البلاد التي تقمصتها الحرب ونيران التقاقيب، كان ينبثق من جسدها الملفوف متحدياً، متسرباً رقائق السعف وخرز العاج وجلد الأصلة المتدلي بين فخذيها الدائريين الممتلئين، تسندهما مؤخرتها الانيقة، التي يضيق الباب عنها!..
كان جمالها برياً، متوحشاً، قاسياً، ومع ذلك ناعماً كالحرير.. إنه ذلك النَّوع من الجمال الغامض الذي لاتعرف من أين ينبع بالتحديد ويشع!.. ولا إلى أين ينتهي، وليس ثمة أحد يستطيع تحمله البتة!..
كان جمالها كجمال الكيرا، مدوياً مثل شلال مارتجلو.. صداه فى كل مكان، ولم يكن ثمَّة من يستطيع إحتواء هذا الدوي سوى دوامات صوت شلال مارتجلو التي تشعل في قلب آدمو مقاومة للحصار المتجدد: مارتجلووووه.. ووو...

هو الخطاب السياسى اللعين، يهاجر فى مكان نحسبه وطن، ثم نكتشف فجأة بعد إنقضاء عهد ما، أن الأمر ليس سوى ثمة دولة أخرى كالتى إنقضت، حينها، نبكيها على الجدارات وطن! بلا ذاكرة، بلا ضمير، كالنصل ينغرس في القلب! دولة من العسس!
أين هو الوطن يا نَوَّارْ ونحن نهتف بعودة من خرجنا لإسقاطهم بالأمس؟!.. أين هو.. ولا تزال البدائية والخواء وفوضى رأس المال العطنة تملأ خياشيم الأماكن والناس؟!.. ذاكرة الغبي الأخطل لا تزال تسيطر على القطيع!
والذى يأتي هو الذي مضى! لا قيمة لأركان النقاش السياسي العقيمة.. لاقيمة للمناظرات التي تجندلنا في اليوم ألف مرّة!
لا نزال نعيد إنتاج تاريخنا القبلي بكل تناقضاته، قالت سلوى:
"بنية الوعي الأسطورى كما تقول!"
وتلحظ أن إسماعيل بادي قطع الفيافي منها إليْ.. لم يسترح أبداً ولم تنهكه القفار في دائرة النقاش.. ألح في السير وهو يتقصى سوء معاملة المسلمية لقبيلته الجمع.. زار حامد السعيد فى هذه الكافتيريا (فلمَّح) له حامد السعيد أن ما ورد إليه عن إهانته للجمع لاتشوبها شائبة كذب!..
هى الحقيقة وأردف مضمناً كلماته وعيد وتهديد وهو يقدم (المريسة) لإسماعيل بادي:
"اشرب يا أبو قصيصة باكر لابد نخرب بريسة"..
ويشرب إسماعيل ثم يضمن غناءه وعيداً وتهديدا أشد:
أشرب لاتتعب قوز العافية باكر يخرب!"
وهكذا تقع حرب البسوس بين البقارة والمسلمية!.. ذات التاريخ يعيد إنتاج نفسه الآن في الجنجويد.. فى دهاليز البرلمان.. في ردهات الكافتيريات وعلى ورق الجرايد وأروقة القاعات، ثم تتحوَّل الجامعة إلى بقعة من النَّار والفحم، قال عادل:
"سلوى بتسأل عنك؟!"

لم تكن تخطر على بال أبوعلي سوى سلوى واحدة.. تلك الفنانة التي إلتقاها قبل خمسة سنوات وتلاشت في الفراغ، يبحث عنها الآن في دواخله، يجدها مختبأة كالسر، سلوى سره الذي لايعرفه أحد! سره المختبئ كنَوَّارْ..
"لا أعرف واحدة بهذا الإسم!"
"أعلم أنك لا تعرفها.. إنها قريبة نهى.. أو قل أنها صديقتي"
"نهى؟!"
"نهى خطيبتي!.. ماذا حدث لك؟!"
"آه تذكرتها، هل سلوى هذه.. لم أرها سوى..، أذكر أن نهى حدثتني عنها أيضاً!"
"جميل أنها رائعة بحق، حلوة ومدهشة!.. أنت محظوظ يا صديقي"
"محظوظ؟! ليس ثمة شيئ بيننا!"
"يكفى أن تسأل عنك من هي مثلها!"
"لا بد أن عقلك قد حدث له شيئ!"
لم يكن عادل يدري أن القلب محجوز لحكاياها. لطيوف نَوَّارْ التي ارتحلت ذات يوم غائم معبأ بالدهشة والغموض..
"ماذا عن نهى.. كيف هي الآن.. هل تأقلمت على الشباب؟! تبدو لي بسيطة ورائعة"
"إننى أذوب فيها وجدا"
"وهي؟!"
تعشقني بجنون.. تتلاشى فيّ!"
إبتسم أبوعلي:
"لا تدع محموداً يراها، أجعل تأمينك عالياً حتى لايسلبك إياها!"
لن يستطيع أحد إنتزاعها مني، فهي التي بادرتني الحب!"
"في نهاية المطاف أنها أنثى، حينذاك ربما كنت انت الخيار الوحيد المطروح أمامها. أما أن تختارك أو تختارك"
"أبدًا، كأن هناك خيار ثالث:
"ألا تختارني أو ألا تختارني!"
"وأنت.. كم عدد الخيارات التي كانت أمامك؟!"
"ألم أقل لك إنني أُحبها!"
"لاتتعجل يا عادل، كفاك تجربتك التى أدخلتك في الأزمة السابقة، تريث وأبن على أساس قوي!"
"تلك اللعينة أحببتها بصدق، لكنها خائنة.. خدعتني، لكن نهى صادقة ونقية!"
"المرأة كائن غريب في كل الأحوال.. خذ حذرك وعش تجربتك بصدق!.. أنت كالفراش تنتقل كلما كان هناك زهر أجمل وأكثر رحيقاً وعبقاً.. حاول أن تجعل نهى فقط محوراً لعالمك!"
"دائماً تهاجمني يا أبوعلي، إلى الحد الذي أشعر فيه أحياناً بأنني تلميذ مشاغب فى مدرسة أنت ناظرها!"
"أنا؟!.. يبدو أنك أسأت فهمي كالمعتاد.. لم أقصد قل لي متى تستقر أنت؟!"
"عندما أجد المرأة الحلم!"
"إنك ترجو خيراً من سراب قاتل!.. الآمال والرغبات لاتتحقق أبداً طالما كل ما نفعله هو مجرد إنتظارها.. إنتظارها فقط!"
"ماذا تقترح أنت؟!"
"سلوى تسأل عنك في إهتمام!"
"إنني لم أراها ولا أعرفها!"
"أحبتك من حديث نهى عنك!"

"وماذا تعرف نهى عني؟!"
"أسأل سلمى، فلا حديث لها سوى الحكي عنك؟!"
"تكاد تحفظ حتى تاريخ ميلادك، أحياناً أشعر بالغيرة منك!"
"ولماذا تحكي عني بهذه الصورة لنهى!"
"لا أدرى ما الذي يعجبها فيك؟! إنه أمر محير!"
هز عادل رأسه ومضى، مكث أبوعلي قليلاً، شعر بالوحدة والوحشة، لأول مرة يهاجمه هذا الشعور، نهض من مكانه وتوجه إلى كافتيريا النشاط، يعرف أين يجد بقية الشباب.. كعادته دائماً، نادراً ما ينضم إلى جلساتهم المرحة والمثقلة بالهموم، كانوا متحلقين حول المائدة: خالد، خالدة، عبد الله، آمنة، عادل، نهى ومحمود.
فكر أن يغير مساره ويذهب إلى بيت أخته فقد إشتاق إليها كثيراً وإلى إبنها الصغير.. كما أنه منذ أيام لم يذهب إليها.. يعلم أنها ستكون قلقة عليه جداً.
غير رأيه وإستقر على الجلوس معهم.. الشعور بالحنين إلى أخته وصغيرها لم يفارقه. مسه شيئ من الضيق.. همس خالد:
"ما بك يا أبوعلي؟!"
"هل تكلم معك عبد الله؟!"
"بخصوص؟!"
". . . . . "
"عموماً لم أره منذ الصباح، وأراه الآن مشغولاً بآمنة!"
"حديثه على كل حال لايسعدني"
"أنا أعرفك جيداً دواخلك شفافة.. البصمة تؤثر فيها!.. كيف حال خالدة معك؟!"
"والله يا أبوعلي الأمور كلها في طريقها للتأزم!.. هكذا أنا ما أن تطل لحظة فرح حتى تسلبني الاقدار إياها دون رحمة!"
"ماذا هناك بالضبط؟!"
"أسرتها لاتريد لها شاباً فقيراً مثلي، كالعادة ذات السبب في كل تجربة!"
"لاتحزن يا صديقي، ربما لم يحالفك الحظ حتى الآن! وحتما ستجد التي تستحقك!"
"نحن بحاجة لجمعية للدفاع عن حقوق الرجل! كنت أشعر بضيق عظيم، لم أستطع أن أقول لخالد سوى:
"لا تحزن ياصديقي"
كررتها حتى مللتها، قررت الذهاب إلى بيت أختي هكذا فجأة! ثم قمت وأنا مثقل بالحزن..
توقفت عند مخرج الجامعة مشتت الذهن، لا أدرى هل أذهب عن طريق الشهداء أم السوق العربى، قلت في نفسي: حتى هذه المسألة الصغيرة، لم تعد تستطيع حسمها يا أبوعلي؟! تنهدت وأنا أتجه نحو محطة مواصلات الخرطوم

رأيته فجأة فى المحطة الوسطى بحري، كان الرقم الثاني في شلتنا العجيبة تلك!..
مر شريط الشلة على ذاكرتي سريعاً فقد كانت فرقة ذات نشاطات متعددة!.. فهي الجهة الوحيدة المسئولة رسمياً عن أي كارثة تحدث في المدرسة، وهي التي تقوم باحتيال إدارة البوفيه، فتشرب الكركدي والشاي (ملحاً)!.. دون أن تدفع مليماً واحداً..

وهي التي تجد ذات أعضائها في كل الجمعيات، وهي الوحيدة التي تعود إلى مواقعها في الداخليات، في وقت متأخر من الليل، بعد أن تكون قد غزت الأحياء المجاورة، خاصة الحي العشوائي البعيد، وأفرادها يترنحون:

أنا أصلي يا عقد النجوم في الريدة ذي ساقية جحا

والكفة في ميزان هواي صعبان عليَّ أرجحا– الشاعر محتار دفع الله.

كانت شلتنا حقاً ذات نشاطات متعددة، فهي التي تدبر المكائد لإرهاب الطلاب الجدد (الجنايز) حتى لا ينضموا لهذا الاتجاه السياسى أو ذاك.. فارضة حمايتها، على من تشاء من عباد الله الطلاب، وهي التي تنتدب نفسها قيمةً على الآخرين، حاسمة الشواذ أخلاقياً والذين (يدكون) المذاكرة.. كنا إدارة داخل إدارة، وهو الناطق الرسمي باسمنا في المحافل الطلابية..

وكانت إدارة المدرسة تنظر إلينا بحذر وترقب، خوفاً من تساؤلاتنا المريبة عن كمية السكر المستحقة، للداخلية أو أشياء من هذا القبيل!

وقد كنا ندرك تماماً أين هي مواقع الخطوط الحمراء! من الألوان الأخرى! فنستكين إلى شعرة معاوية!

وكان الطلاب جميعهم يرضخون لسلطاننا الواسع، والإتحاد الطلابي يسشيرنا في كل الأمور بغية إتقاء كيدنا، بعد أن تفشل مؤامراته التي تستهدف أمن الشلة! فيلجأ إلى ترغيبنا باستمرار، لإدراكه التام ضخامة شعبيتنا، وأننا لو أردنا أن نكون مكانه لرشحنا أنفسنا بعد أن نطيح به!

فرغم أفاعيلنا التي لم ينجح أحد في إثباتها علينا، حافظنا على هيبتنا.. وكنا محبوبين من الجميع، ولم يكن الإتحاد يخشى أن نتحول إلى هيئة رسمية، إذ أن دستور الشلة غير المدون، يمنع ذلك لئلا نعجز عن تطبيق العدالة على طريقتنا، التي لا تعجب أحداً، لعدم ثقتنا في القوانين، واعتقادنا أنها كتبت أصلاً لتخرق! ولم يكن بيد الجميع حيلة!

ذات مرة قرر وكيل المدرسة التصدى لنا، فوجد في اليوم التالي إسم إبنته مكتوباً على السبورة بالخط الديواني، تحت عنوان عريض بالرسم الفارسي:

الحمله الفرنسية!

وفي الأسفل اسم لفتاة تناثرت حولها الأقاويل كانت تتردد على مكتبه في فترات متفاوتة، فاضطر الوكيل لرفع الراية البيضاء!

كانت شلتنا تعلم كل ما يدور في و حول المدرسة من أقصى الخاص حتى أكثر الأشياء عمومية، وتمارس الكرم الحاتمي على طريقتها، بتحطيم أقفال الدواليب الخاصه بالطلاب الأثرياء وتوزيع مكتنزاتها سراً على الطلاب الفقراء والمعدمين!

لم يكن أحداً من الطلاب الفقراء الذين (إبطهم والنجم) يشكو من عدم دفع الرسوم! فنحن أولياء أمورهم! المسؤولين عن دفع رسومهم!

كل المحاولات الدؤوبة لإختراق شلتنا باءت بالفشل الذريع! فشلتنا ذات عضوية محدودة، وكل منا عندما يكون بمفرده، فى مؤتمر (ما) يمثل رئيس الشلة ويؤدي الواجب! إذ أن الكل تكليفه معه، والكل رئيس!

لم يكن هناك ثَمَّة من يجرؤ على تجاوز القوانين التي كنا نضعها باستثناء عتَّام.. بل كان هو المدير الفعلي لكل عمليات الشلة وعقلها المفكر، رغم أنه رسميا ليس أحد أعضاء الشلة!

ولم يكن ثَمَّة من الطلاب من يتحدانا سوى عاصم الأعرج، فقد كنا نتضامن معه فى سرنا لاعاقته وحتى لا يشعر بالنقص، كما أن بنود نظامنا الداخلي لا تسمح بايذاء المعاقين، وقد استغل اللعين هذه الثغرة!

استرديت ذاكرتي التي طافت بعيداً وهتفت:

"صلاح.. صلاح!.."

كان يدافع مع المدافعين.. لم يسمع ندائي فكررت النداء.. التفت صلاح. كان وجهه مكدوداً، متعباً! افتقد إلى ذلك التحفز والعنفوان أيام المدرسة الثانوية والشلة. لمح وجهي، فنضح وجهه بفرح طفولي.. نفض عن ملامحه المرهقة تباريح التعب والغياب:

"شهاب أبوعلى.."

والتقينا في عناق حميم.. شربنا شيئاً من بارد الباعة المتجولين بباغاتهم البيضاء وكيزانهم اللامعة وجلسنا متقاربين، قلت:

"مرّ زمن طويل ياصديقي لم نلتقي. هكذا حال الدنيا.. كل من عليها مصلوب على نبض المعاناة، من أصبح عاطلاً منا ومن لا زال يبحث عن عمل ومن قضى نحبه ومن لازال ينتظر، ومن هاجر طلباً للمال أو مزيداً من العلم.. تفرقت بشلتنا دروب الحياة!"

لمعت عيناه فجأة ببريق حاد، كأنه سيفجر قنبلة:

"عثمان.. عثمان عبدالله!.."

"عثمان؟!.. عثمان من؟!"

"ذلك الفتى النحيل.. أول الدفعه دائماً.."

فتشت في ذاكرتي عن عثمان، قلَّبت بجهد، بحثت إلى أن عثرت عليه مختبئاً في مكان قصي بين تلافيفها.. بوجهه النحيل.. كان من النَّوع الذي يمر بحياتك دون أن يخلف وراءه أثراً.. بسحنته العادية التي لاتنبئ عن عبقرية ما.. ومع ذلك كان عبقرياً حقاً!.. دائماً غير موجود إلا في إطار ذاته في مقعده بالفصل أو على سريره في العنبر، مرَّ طيفه سريعاً بخاطري:

"أيوة تذكرته، مالو؟!"

"وجدته قرب الجامع الكبير يسأل الناس.. شحاد يعني!"

إرتفع حاجباي في دهشة:

"لا ياخ أكيد شبهتو!.."

"أبداً والله سلَّم علي باسمي، وخضنا في بعض الذكريات، وسألني عن الدفعة كلها!.."

"أصلو ما ممكن ياخ!"

"والله ده الحاصل!.. تمنيت لو أن عثَّام الكلس سمع بأمره، لفعل لأجله شيئا!"

"وأخذتنا لهفة اللقاء إلى الذكريات البعيدة، نتنقل من محطة إلى أخرى، فجأة خطر لي خاطر:

"أتذكر ما فعلته أنت وعثَّام بعاصم؟!"

آه عاصم.. ذلك الأعرج اللعين!.. كان يمتلك عصا أبنوسية، لا يستطيع المشي بدونها.. وكان معنا في عنبر واحد.. جباناً إلى حدٍ مخيف للدرجة التى كنا ندعوه فيها بقلب (الفِرَّة). فقد كنا قد خصصنا إسم هذا الطائر الجبان، لأمثاله من الطلاب الداخليين، رغم ذلك كان هو الوحيد الذى وطد علاقته بالشَّلة..

إذ أن لا أحد في شلتنا يحب مادة الرياضيات والوغد كان يدرك أسرارها جيداً، فدماغه المفلطح كان يتعامل مع الأرقام والمعادلات والمسائل بذات السهولة التى يلوك بها فمه المنتن عدس الداخلية المرعب!.. لكن اللعين برغم ثراء أهله، كان يحاول إستغلالنا لحمايته لقاء حل مسألة أو مسألتين عصيتين على الحل..

ذات مرة تآمر عليه عثَّام وصلاح، فيما كانت الشلة لا ترضى بأي تآمر ضده مهماً كانت الأسباب، ثم لم يجرؤ أحد سوى عثَّام على تنفيذ المؤآمرة، إذ انسحب صلاح فى اللحظة الآخيرة!..

وكان عثَّام غاضباً منه غضباً شديداً، لأنه غشه في حساب المثلثات، فقرر تنفيذ المخطط وحده بعد تراجع صلاح.. وفي منتصف الليل تماماً قام عثَّام بغارة أسفرت عن سحب العصا الأبنوسية من تحت سرير عاصم، ورجع عثَّام إلى سريره سالماً دون أن يشعربه أحد!

فى الصباح أخذ عاصم الأعرج يصيح و يصرخ:
"يا حرامية يا أولاد الكلب.. أربعة و عشرين دقيقة بس إذا العصاية ما ظهرت حايكون شغّل تاني.."
وانقسم العنبر إثر ذلك إلى معسكرين، حلف أعلن مناصرته لقضية عاصم علناً وهو الحلف الأقل تضرراً من لسان عاصم البذئ اللاذع، أما الحلف الأكثر تضرراً فقد أبدى إرتياحه لتطورات الأوضاع في عنبر ستة!..
وحقيقة ما يدور خلف الكواليس، أن العصا الأبنوس كادت أن تؤدي إلى كارثة، إذ فجرت صراعاً حاداً بين مراكز قوى الإتحاد الطلابي فى الداخلية والتي أخذت تطفو على السطح مستغلةً وموظفة حادثة العصا، وفى إطار توظيفها لهذه الحادثة أخذت تُعرِّي الشلة!
في خضم تلك الأحداث بدوت متعاطفا مع عاصم:
"كدي أهدأ يا عاصم يا خوي، لابد اننا سنجد عصاتك المقدسة هذه!"
"أيوة مقدسة، فهي بالنسبة لي أكثر أهمية من عصا موسى!.. بعدين انت ما عارف الشالا مين ولا دساها وين، فحتلاقيها وين؟!.. أساسا أنا عارف انكم انتو الشلتوها!"
كانت الدعاية المضادة قد أتت ثمارها.. عاصم نفسه بدى واثقا أن الشلة هي المسؤولة، عن إختفاء عصاته المجيدة!.. لكن كالعادة لم يجد الجميع أمامهم خيارا آخر سوى أن ينددوا ويستنكروا ويدينوا ثم يرفعون توصياتهم ضد مجهول!..
لم يستطع عاصم في ذلك اليوم، الذي اسميناه بيوم العصاية تخليدا لذكراه العطرة!.. لم يستطع الذهاب إلى الفصل إلا بعصا قطعناها له من شجرة النيم العجوز التي كان الانجليز قد جلبوها من الهند قبل عشرات السنوات وزرعوها في باحة الداخلية!
في الحقيقة قطعها له أحد أعضاء الشَّله!.. وأخذ هدير عاصم يخفت يوماً بعد آخر.. إلى أن أسطاع أن يخلق علاقة عاطفية جيدة مع عصاته الجديدة، التي أخذ يخفيها بعنايه تحت فراشه عندما ينام!..
وعندما شارفت مواعيد الإمتحانات على الأبواب، قرر عتام إعادة العصا الأبنوس لعاصم مع رساله تصمه بسوء السير والسلوك، ولم تكن هناك طريقه مُثلى أكثر من أن يفاجأ عاصم بعصاته الأبنوس وهي منتصبة على الأرض في قلب الساحه التي تتوسط عنابر الداخلية!
تذكرت وصلاح تلك الحادثه فأخذنا نضحك على شقاوَة زمان، سألته:
"مالا قيت عاصم ده، أو أي واحد من الدفعة؟!.."
"عاصم الآن نائب مدير وكالة الطاقة الذرية في الخرطوم"
"يا راجل!!"
"لقد انضم لتنظيم السلطة في الجامعة، وأنت تعلم الباقي"
ثم أضاف:
"لاقيت عبدالعاطي وعنقرة قبل فترة"
"وديل عاملين كيف؟!"
"عبدالعاطي مهاجر إلى أمريكا ، جاهُ (لوترى) الحظ ضرب معاه، وعنقرة أصبح مدير مدرسة بنات خاصة"
"وإنتا؟!.. كما العهد بي، يا مولاي كما فكيتني عكس الهوا!"
"ماذا تعني؟!"
"تم فصلي من الجامعة وانا في السنة الرابعة لأسباب سياسية، أعني.. لأنني كعضو تنفيذي في إتحاد طلاب جامعة الجزيرة، وقفت ضد ما يسمونه جهاد الطلاب في الجنوب، ومنذها ألف وأدور حول نفسي"
ثم أضاف:
"في الحقيقة لم يتم فصلي وحدي، فصل معي من الدفعة عبدالرحمن وحسن فالاثنان كانا أعضاء في مجلس الاتحاد"

"....."
"بالمناسبة ما هي أخبار خالد.. كنت مفتكرو بدرس برا!"
"فعلا كان في أوربا، النظام أعاده مع من أعاد من منكودي الحظ للدراسة في الجامعات السودانية"
"وأخبار الكلس شنو؟"
"عتام؟"
تساءل صلاح وهو يضيف:
"ليست ثمة اخبار كافيه عنه.. لكن يبدو أنه يؤرق الأجهزة الرَّسمية. آخر شئ سمعته عنه أنه تنكر في زي ضابط بوليس وزور أوراقا خاصة بنقله كمهندس إلى مصنع سكر كنانة بعد هروبه من سجن كوبر"
"وهل كان في كوبر؟
"نعم لقد خدعهم، إدعى التوبة وزعم أنه سيذهب إلى الجهاد في الجنوب أو جبال النوبة أو جنوب النيل الأزرق أو دارفور"
"لماذا أودعوه كوبر إبتداءً؟"
"هناك عشرات الأسباب أهمها اصابته لأحد التجار بعاهات مستديمة لرفضه إخراج الزكاة من ماله"
"حتى هذه يريد أن يتدخل فيها!"
"لا تزال ذاكرة الشلة تسيطر عليه!.. فكما تعلم منذ كنا طلابا اعتاد اقحام أنفه في كل شئ!"
"هاا.. ماذا حدث له في كنانة؟"
"اعتمدت الجهات الرسمية أوراق نقله دون أدنى شك في أنها مزورة.. الخبيث كان يخطط للإستيلاء على سكر التصدير وهو ما حدث بالفعل، إذ بعد أن استولى عليه استطاع بيعه بمبالغ طائلة لتجار السوق السوداء، تحت سمع وبصر الأجهزه الأمنية التي جن جنونها عندما اكتشفت الخدعة. وعند القبض عليه لم يجدوا معه ما يساوى قيمة طن واحد من السكر.. ولم يستطيعوا إثبات شى ضده، فقيدت قضية السكر ضد مجهول!..
حكى لي أحد العساكر الذين شاركوا في كمين القبض عليه، قائلا: سرنا في قافلة من عربات الشرطه المسلحة، حاصرنا الفندق الذي يقيم فيه، تقدم المقدم برفقة عشرة من الرتب الأدنى المختلفة، صعدنا إلى جناح عتام الكلس، كان صوت جهاز تسجيل ينبعث من الحمام، وندى القلعة تغني أغنية حماسية.. هتف أحد النقباء:
"إخرج ياعتام.. البوليس يحاصر المكان.."
فأتى صوت عتام هادئاً وعميقاً ومؤثراً:
"توقفوا عن إزعاجي، وتفضلوا إلى الغرفة حتى أنهي حمامي.."
كان كأن الأمر لا يعنيه شخصياً، وهو يواصل حمامه مرددا خلف ندى القلعة كلمات أغنيتها الحماسية.. بعد زمن ليس بالقصير خرج، جفف جسمه.. نظر حوله باستياء، ثم حدج النقيب بنظره نافذة:
"آمر رجالك بالخروج.. بإمكان حضرة المقدم وانت البقاء" تردد النقيب قليلاً، ثم بإشارة من المقدم انسحب الجميع فيما عمر المقدم والنقيب سلاحيهما، في توتر ملحوظ!.. خاطبه المقدم:
"أنت مقبوض عليك!"
"أعرف، فهذا ليس حفل تكريم على مايبدو.. وأختصارا لوقتي ووقتكم، أنا لم أزور أو أنتحل شخصية أحد ولم أحتال فلاتحاولو إزعاجي بهذه التهم المملة.. وأرجو أن تكون مدركاً أنك تقبض عليّ الآن بتهمة واحدة فقط.. هي الهروب من سجن كوبر العريق.. وفي الحقيقة لم أهرب، خرجت لقضاء بعض الاعمال الاسرية، وكنت أنوي العودة لولا أنكم متعجلون دائما وتستبقون الأمور!"
كان لساني الضابطين قد انعقدا، وتجمد كلاهما حيث هو، كأن مطرا صب عليهما بغتة!.. حاولا إسترداد نفسيهما من أسر عتام فقال المقدم:

"هل تسمح بأن تتفضل معنا بهدوء أولاً ولنرى بعد ذلك مايكون"
فرد عتام ببرود:
"حسناً إستديرا إلى الحائط حتى أكمل إرتداء ثيابي فأكيد أنكما لا ترغبان في رؤية أشيائي الحميمة!.. لاتريدان فعل ذلك؟!.. حسنا أنتما حرين!"
أخذ يرتدي ثيابه وهو يقول:
"يبدو أنكما تلقيتما تحذيرا شديد اللهجة بخصوصي من بعض أصدقائي القدامى"
وواصل إرتداء ثيابه في عنايه فائقة. ثم أخذ يسرح شعره ويتعطر، ملقيا على المرآة نظرة آخيرة!
"الآن يمكنك أن تتقدم.."
"لا، تقدم أنت.."
قال الضابط وهويشير لعتام بمقدمة الطبنجة..
"حسناً، لكن من سيحمل حقائبي، فكما تعلمون هذا فندق؟!"
"كل حقائبك ستذهب معنا، فهي معروضات!"
"عظيم.. عظيم!"
"إذن هيا إحملها"
"أحملها انت"
"ماذا تقول يا رجل؟!.. هل جننت.. استدع رجالك"
قال عتام بحدة ونفاد صبر..
"حسناً تقدم، أمامي.."
وأمام الفندق رفض عتَّام الركوب في أيٍّ من عربات الشرطة..
"صحيح أنا مجرم، ولكنني مجرم محترم.. لن أركب هذه العربات المشبوهة! تعتقدون أنكم قبضتم عليّ لكفاءتكم وهذا ليس صحيحاً، بل بمزاجي أنا.. ولو أردت الهروب الآن لن تستطيعون منعي.."
تدخل أحد العساكر بنرفزة:
"حاول الهروب إذن لأفرغ هذا (الكلاش) فى مؤخرتك.."
إلتفت عتام نحوه بحدة:
"حقاً؟!.."
"كما سمعت!.."
"أنني لا أخشى الموت يا رجل!.."
كانت التعليمات الصادرة للمقدم، ألا يتم تعرض عنيف لعتام الكلس فهو يعرف جيداً كيف يتعامل مع العنف، كما أن ثمة توجيه خاص بالحذر منه واطباق الحصار عليه فهو فنان في الهروب وأستاذ في المراوغة.. صاح النقيب في أحد العساكر:
"اذهب وآتينا بتاكسي أجرة!.."
أضاف عتام:
"تاكسي محترم يا عسكري!"
ووصلت عربات الشرطه التي تحاصر التاكسي إلى رئاسة الشرطة، ووسط دهشة الجميع استقبل المدير شخصياً عتام بالأحضان وهو يضحك:
"عتمة.. ازاي الحال يا راجل يا مجنون إنت!.."
"كده برضو يا سعادتك ترسل لي عصابة أوباش.. والله يا جنابو قصرت معاي شديد!"

"كدي اهدأ يا عتام واتفضل.. واضح إنك كملتها في الخرطوم وقلت تجي تتمها هنا.. إنت ما ناوي تجيبها البر، هسه الجابك هنا شنو يا عتام؟.. ما كنت فى كوبر كويس وعليك نور..؟!"
"جابنى شنو؟!.. جابوني رجليني ديل.. هاهاهاهاي.."
ودخلا المكتب تحت الحراسة المشددة..
"عرفت إنو مدير الشرطة عرض عليك التوبة ورتبة ملازم في المباحث؟!.."
"ورفضت!"
"ليه يا عتام؟!.. عاوز شنو إنت؟!.."
"كل شئ فى البلد دي وسخ.. العدالة سعادتك .. عاوز العدالة"
"العدالة يا عتام بيحققها مشروع أمني متكامل بتقدمه مؤسسات الدولة المختلفة.. إنت كده ما قاعد تخدم العدالة، انت بتقنن الإجرام.. بل بترجع بالاجرام لقوانين الغابة!"
"كل المشاريع فشلت، وليس مهماً أن أكون جزءً من هذا الفشل العام أن ذلك على الأقل يبرر المقولات الذرائعية لعلم الاجتماع والجريمة.. موش كدة؟!.."
"عموماً ستواجه بعض التهم.. الاحتيال والنصب والتزوير وانتحال الشخصية وبعدها سنقوم بترحيلك إلى الخرطوم لمواجهة تهمتك الأساسية وبالمناسبة، جبت بطاقة الضابط المزورة دي من وين؟!.."
"خليها بطاقة الضابط.. البلد دي لو عاوز بطاقة رئيس جمهورية ممكن تطلعها! دغري عديل ما تزوير!"
"يعني إنت معترف بانك انتحلت وزورت؟!.."
"حاولوا اثبات ذلك.. يبدو أن التجارب لا تعلمكم شيئاً مثلكم مثل بقية الشعب!"
"ويبدو أن النقاش معك غير مجدي يا عتام.. ماذا تظن نفسك، منقذ لأمة محمد؟!"
"لم تخطر على بالي هذه الفكرة على الإطلاق.. ربما أدرسها ذات يوم!.."
كان المكتب ممتلئاً عن آخره برتب مختلفة، أخذ أحد العساكر المنكفئين على ملزمة أوراق يقلب في الأوراق التي بين يديه في حيرة!.."
"حنفتح بلاغات بالتهم الموجهه ليهو سيادتك والمبالغ القبضناها عندو نسجلها كمعروضات؟!"
تقلبت نظرات المدير بين العسكري وعتام في نظرة حائرة ليس لها هدف محدد، فقال عتام بحسم:
"سجلها أمانات يا عسكري.. ما فيش زول اشتكى ليكم مني وقال أنا شلت منو قروش!.."
ارتبك العسكرى فأومأ له المدير.. سحب عتام جزء من المبلغ ووضعه في جيبه:
"لزوم مصاريف سعادتك.."
تعالت ضوضاء في الخارج بشكل مفاجئ، كان صوت امرأة تبكي فى حرقة وعسكري ينتهرها، قام عتام في فضول، فتبعه البقية بشكل مدروس، توقف عند المرأة المنتحبة:
"ماذا بك يا خالة؟!"
"ولدي عشان يفكوه عاوزين ضمانه خمسين ألف والله خمسين قرش ما عندنا يا ولدي.. أولادو ليهم ثلاثه يوم ما أكلوا.."
قال عتام وعضلات وجهه تتقلص في حزن بليغ وهو يربت على كتفها برفق:
"خلاص معليش يا خالة.."
ثم أدخل يده فى جيبه:
"ما تشيلي هم الموضوع الضمانة، اعتبريها اندفعت خلاص، أخدي المبلغ دة عشانك وعشان أولادو"
فوجئت المرأة، كانت تتوقع كل شئ إلا أن يحدث معها هذا:
"إنت بتتكلم صح ياجنابو؟!"

قال وهو يبتسم في أسى:
"أولاً أنا ما جنابو.. وبتكلم صاح.."
مدت يدها في تردد.. لم يزل عنها التردد حتى والنقود تقعي فى حضن كفها.. بكت بحرقة وهي تهرول نحو مكتب البلاغات وتدعو بكلمات مبهمة لعتام.. إنسحبت نظراته عنها وهى تغيب داخل المكتب.. تنهد المدير:
"ومع ذلك ستعدم ذات يوم ياعتام.. ولن يذكرك أحد!.. وسيسعد الغالبية لاعدامك!"
"عندما أعدم، سأكون قد إرتحت حينها من قرف هذا الوطن الفضيحة!"
"سيجهزون لك زنزانة تليق بمجرم خطير مثلك. لا تكن مزعجاً حتى لا يهذبوك!"
"سأحاول التحلي بضبط النفس!"
وتم إقتياد عتام إلى بوابة السجن..
عند المدخل كان ثمة رجل مقيد يقف بين أثنين من العساكر فى إنكسار.. توقف عتام وهو يسأله في فضول:
"مابك؟!"
نظر الرجل إلى عتَّام في حزن ثم كفى نظراته على التراب وهو يقول بانكسار:
"سرقت غنماية.. سيد الغنماية إتنازل عن البلاغ، لكن الغرامة.."
ولم يتركه عتام يكمل، إذ انفعل وهو يهم بالانقضاض عليه:
"غنماية؟!.. غنماية يا حيوان!.. غنماية؟!.."
أصبح كمن أصابه مس من الجنون. أمسك عسكريين بتلابيب عتام وقيده آخرين من يديه إلى الخلف وهم يصرخون في وجهه:
"لماذا تقحم أنفك فيما لا يعنيك؟!.. لماذا لا تكون في حالك؟!.."
كان توترهما قد بلغ ذروته، هدأ عتام قليلاً ونظر إلى شخص يقف على مبعدة:
"تعال وخذ من جيبي ما يكفي لتدفع غرامتك أيها المأفون.. حاجة غريبة!.. ناس بتسرق دول.. وناس تقول ليك غنماية!.."
وانصرف عتام مع العساكر وهو يردد:
"قال غنماية، قال..!!"
ولم يلتفت مرة أخرى..
في الليلة الأولى التي قضاها عتام داخل السجن، استفز السجانين وتعارك معهم ولم تتم السيطرة عليه إلا بعد جهد جهيد وعندما أعلن الديك صباحاً مولد يوم جديد، تصالح عتام مع العساكر وأعطاهم بعض النقود:
"أمشوا أفطروا ليكم فطور زى الناس يا جيعانين!.. عارف ظروفكم زي الزفت وطين زيكم.. لكن تستاهلوا إذا شغالين الشغلانية المعفنة دي!.."
لم يستجب العساكر لاستفزازه، إذ لم يكن منطقيا أن يرفض من هم في مثل ظروفهم، أطروحة الفطور (المدنكل)، الذي ربما لا يحصلون على مثله لسنوات!...
بعد ذلك مباشره تم استدعاء عتام الى مكتب المدير وفي طريقه إلى الذهاب لم يخلو الأمر من ممارسة هوايته المحببة، التي وجدت براحاً عندما نادت على العسكري إحدى ستات الشاي:
"عليكم الله، خلوه يشرب ليهو شاي!.."
التفت عتام إلى العسكري:
"النخوة، النخوة يا دفعة.. لازم تشرب عندها شاي: نحن ناس حياتنا جبر خواطر، زي ما قال عمك عثمان اليمني"
وشرب عتام الشاي سيئ الصنع في رضا تام ومنحها أكثر مما تستحق!
قال أحد الخفراء أن ست الشاي لملمت عفشها بعد ذلك مباشرة ولم تعد إلا بعد أسبوع، وصرحت:

"اشتريت تموين البيت وشوال فتريتة من قروش الراجل الصالح داك"
"صالح؟!.. صالح شنو يا وليه، ده مجرم خطير جدا.."
فقالت في إصرار:
"جيد لأمو، أريتو ولدي. إجرام السرور يا بابا.. دة الإجرام كدة ولا بلاش!.."
فيما كان لحظتئذ عتام متفاجئا، أنهم على إصرارهم في فتح بلاغات ضده تحت مواد مختلفة، وعندما تم عرضه على القاضي، طالب بإسقاط كل التهم المنسوبة إليه.
كان عتام متنرفزاً، مما دفع القاضي لاستفزازه.. فشعر بالغضب من محاولات القاضي المستمرة لاذلاله، فغلى الدَّم في عروقه، وقال مهدد القاضي:
"أعدك أنك ستندم على كل إهاناتك لي.. ثم صمت وعضلات وجهه تنقبض، ووجه القاضي يتقلص وهو يكيل مزيداً من التهم والسباب لعتام، الذي رغم توتره، لاذ بصمت مهيب، كأنه محاصراً بجبال بعضها فوق بعض!
ولحظة خروجه من قاعة المحكمه إلى السجن، وجه حديثه للقاضي في حزم:
"موعدنا الليلة أيها القاضي.."
فكال له القاضى سيلاً من الشتائم!.. ووضع مزيدا من العقوبات على عاتق عتام. وفي صبيحة اليوم التالي لم يحضر القاضي إلى مكتبه، وفي اليوم الذي يليه ذهب زملاؤه إلى منزله ليطمئنوا عليه، فوجدوه فى حال يُرثى لها..
أتى صوته ضعيفاً، واهناً، منهداً:
"دخل عليّ تلاتة مجرمين ليلاً، تلبوا من الحيطة.. هجموا عليّ وضربوني ضرباً مبرحاً، لم يتركوا جزءً من جسدي دون أن يتركوا عليه بصماتهم.."

استرد صلاح نفسه من عالم عتام.. وسأل أبوعلى:
"ماذا تنوي أن تفعل؟!"
"لا شئ!"
"ماذا عنك أنت؟!"
"أهي دي تذاكري.."
وأخرج من جيبه أوراق ملونة، وهو يضيف:
"بعد بكره بس حأكون خارج الحدود.."
أمسكت بالتذاكر..
"إلى أين إن شاء الله؟!"
"بريطانيا، دون عودة إن شاء الله!.. قول لي كدي إنت عامل شنو؟!"
"لازلت أبحث عن نفسي، أراقب الحياة والناس والزمن وكل شئ!"
"ما تطلع ياخي؟!"
"ما لاقي طريقة.."
"لولقيت طريقة حتطلع؟!"
"والله ما عارف!.."
كانت حركة الناس في المحطة قد قلت، وقع بصري على حافله يتيمة، منزوية في الطريق المؤدي إلى المحطة.. أخذ الركاب ينزلون بعجالة. قال شهاب:

"إنت ماشي وين هسع يا صلاح؟!"
"الشعبية بحري!.."
"حلو.. أنا ماشي بيت أختي في الديوم، تقوم تنزل معاي نقضي باقي اليوم ده مع بعض وبعدين تتكل على الله!.. الشعبية قريبة من هناك بالرجلين بتتمشي، إيه رأيك؟!"
"بس أنا.. "
"بس انت بعد بكرة مسافر!.."
حدجني بنظرة حزينة!:
"ما تضيف أي حاجة ماشي معاك.."
كان الموقف وجدانيا، حزينا..
جاورتنا في الحافلة حسناء رقيقة كالفراشة.. كنت في الوسط بينها وبين صلاح.. مضت بنا الحافلة خجوله، متعبة، مهمومة بقبحها وسط الحافلات الفارهة المتسللة لغابات الأسمنت بحذر، كأنه ينتبه لهذه البنايات العالية لأول مرَّة، إذ بدت منتشرة على أطراف الشوراع الرئيسية بتحفز مستبد.. كان صلاح يحدج في العربات ذات الألوان المتباينة بحزن وغضب:
"لا أفهم كيف يجوع هذا الشعب؟!"
وألقى من النافذة على الإسفلت بقايا أشجانه وفتات تساؤله المرير.. قلت:
"يجب أن لاتسأل مثل هذا السؤال بخاصة أنت!"
"لماذا؟!"
"... ... "
"ليس مهماً أن ترد، أعرف ماذا تريد أن تقول!"
"....."
"لن أعود مطلقاً، ياسيدى البركة فيكم أنتم!"
"لن تستطيع البقاء بعيداً عن الوطن، لازلت داخله، لذلك تعتقد أنك لن تعود لو غادرت!.. هذا النيل خطير جدا، لا أحد يستطيع مقاومة نداءه السحرى!"
"الوطن جزء من تكويننا البايولوجي والاجتماعي وكل ما نحمله في العقل والوجدان من تراكمات مركبات ثقافية تعود لآلاف السنين.. الآن، هنا لا أحد يشعر بأنه إنسان.. أريد أن أشعر بإنسانيتي.."
بدى لي صلاح غريباً جداً، كما أنه ليس بصلاح الذي كان يقود التظاهرات ويتحدث عن البناء والتعمير والثورة والتغيير الجذري و يبكي عندما يغيب عن أمه الشهور، ويسعد حين تقترب العطلة لأنه سيترك الداخلية ويلتقيها فيرتوي بحنانها!..
كأنه ليس بذاك الفتى ذو القميص الأبيض والبنطلون البني.. "يبدو أنك أحبطت تماما يا صلاح!"
"أنت نفسك محبط لكنك تكابر كشجر الحراز.. أو ربما جبان لاتريد أن تواجه إحباطك، هذا زمان كله ورم على قول عبد الرزاق عبد الواحد، ولقد ضيعت زمنا طويلا في الأورام، النتيجه أنك لم تتخرج حتى الآن!
"..... ...."
"عليك أن تقرر ياصديقي، فالزمن لا ينتظر أحداً، نحن لم نعطى فرصتنا هنا، يتوجب علينا أن نصنع من العدم لأنفسنا فرصة في مكان آخر..عليك أن تقرر يا أبوعلي.."
أخذت عبارته:
عليك أن تقرر..

ترن في دماغي بعنف كالمطرقة مددت رأسي من النافذة كنا لحظتئذ نقطع الجسر الذي يربط بين الخرطوم والخرطوم بحري، مرَّت عربة لاندكروزر جديدة، فارهــة يقودها ملتحي كالبالون، ظللت أردد في نفسي.. عليّ أن أقرر.. عليّ أن أقرر..

كان الجميع مثقلين بالهموم، عبثا يحاولون مداراتها بالمرح، كانوا إثنين، إثنين.. يحادثون بعضهم حول المائدة.. الأحاديث تتناول موضوعات لا رابط بينها، تبدو متداخلة في أصواتهم العالية والمنخفضة والأخرى الهامسة..لا أحد ينتبه لحديث الآخر.. تدخل بهمس:
"قلت له يا أبوعلي أنك مستلب عولميا"
"ليست لكل الأمور صلة بالصراع الإجتماعي.. هناك أشياء لا منطق لها ولا قانون يحكمها..
قال خالد غاضباً:
"أنت موسوس، فالحب لاحدود أو مبرر له"
"التاريخ يثبت بالتجربة العملية أن الحالات الشبيهة بوضعك كانت تعاني من مركب نقص محدد!"
قال محمود فتنفرز عادل وشعر أبوعلي أن الأمور ستمضي عكس ماتوقع، فتدخل:
"شباب.. شباب، مافيش وحدة موضوع في كلامكم دة كلو، النقاش لا يكون هكذا يا محمود.. أنت تبدو قاسيا جدا، لا أدري لماذا تسعى لاستفزاز خالد؟!.. وأنت يا خالد أرجوك إهدأ ودعني أنا وحدي أتكلم. استمع إلي يا محمود، انك مخطئ، ولو كانت تلك قناعاتك بصرف النظر عن رأينا فيها فلا يحق لأحد توصيل رأيه وقناعاته بطريقة مؤذية للآخرين.. ومن جهة أخرى يا صديقي، فلتعلم أن التاريخ والتجربة العلمية يؤكدان أن هناك ملكات تزوجن من عبيدهن، وكثيرة هي الحكايا الشعبية، التي عمادها الأساس علاقة عبد، أو شخص من عامة الشعب بزوجة ملك أو أخته أو إحدى الاميرات"
نهض محمود وهو يقول ساخراً:
"ومع ذلك الكلمه الآخيرة كانت دوماً للمرأة، منذ حواء وحتى الآن.. وأنت تفهم ما أعني، سلامي لحبيبتك"
رمياه بنظرة ساخطة وهما يلحظان للمرة الأولى أن الجميع صمتوا.. كانوا منتبهين معهم، شعر خالد بالحرج، فنهض منزعجاً، تبعه أبوعلي وهو ليس بأقل حرجاً أو ضيقاً منه.. كان همه في هذه اللحظة يتلخص في شئ واحد:
هو كيف يعيد خالد إلى طبيعته، فلا شك أن محمود أزمه تماماً وخالد حساس لدرجة مدهشة..
تأوه أبوعلي وهو يتتبع خطى خالد.. لا يدرى ماذا أصاب محمود فهو طيب وود ناس.. يعرفه جيداً.. عنيد ومشاكس وبسيط لحد السذاجة، والحياة برمتها لا تعني له شيئاً، تنطوي دواخله على حقد مقيت للمرأة، منذ دخل الجامعة والفتيات يركضن خلفه، لكن لم يبال أبداً باحداهن ولم يلتفت للخلف مطلقاً، كان دوماً يفاخر:
"أنا الوحيد بينكم الذي لم يفلح صدر أنثى في تركيعه أبدا!"

في تلك الليلة كان أبوعلي يبيت في منزل محمود الذي نادرا مايذهب إليه، فمحمود يحب الداخلية بكل جنونها.. شربا كثيرا من الخمر ومع نسائم الليل في الساحة التي أمام الصالون ـــعلى سريريهما اللذان لا يبعدان كثيرا عن شجرة

الليمون المتكئة على الباب الكبير— المطل على الشارع الرئيسي لمدينة الثورة، في هذا الجو المشحون والنسائم اليانعة، تفعل فعلها، كانت الخمر قد أتت على محمود.. فتنهد بحرقة، سأله أبوعلي بصوت متعتع:
"مابك؟!"
"لاشئ.. لاشئ"
"منذ فترة وأنت لست كعادتك، ما الذي يشغل بالك؟!"
"قلت لك لا شئ"
"بل أشياء كثيرة!"
تنهد محمود بشكل يوحي بالتردد:
"لقد سقط الجنرال آخيراً يا أبوعلي!"
"أي جنرال تعني، فلا شيئ في هذه البلاد أكثر من الجنرالات؟!"
"أعني نفسي يا صديقي.. أعني نفسي"
"ما بك؟!"
"لقد وقعت في الحب، للأسف!"
"لم الأسف، هذا شئ جميل"
"لكنها مخطوبة!"
"ماذا؟!.. هل أعرفها؟"
بعد تردد:
"إنها آمنة!"
"آمنة؟!.. يالك من منكود الحظ، لقد سبقك عبدالله إليها، الجامعة مليئة بالرفيقات، ألم تجد سواها! لقد تأخرت قليلاً ياعزيزي!"
"لم أكن أعرف يا أبوعلي.. لم أكن أعرف!"
بحق كانت آمنة مدهشة، ربما لأنها فنانة بمعنى الكلمة، ليس ذاك لأنها تدرس في المعهد العالى للموسيقى والمسرح.. بل بساطتها، روحها المرحة، شقاوتها التي كشقاوة الأطفال وحكاياتها التي لا تمل والتي لا يتحكم فيها أي منطق، أنها من ذلك النوع الغريب الذى من الممكن أن يقول لك بشكل جاد:
"إذا كانت الزاويه القائمه 45ْ وكنا خمسة والمسافه بين ثلاثتنا، أنت.. كم يكون جيب الزاويه الحادة 90ْ في هذه الحالة؟!"
وبطبيعة الحال لو برمجت هذه المسألة في الكمبيوتر، لا شك أن الكمبيوتر سيبكي ويلطم خدوده!
كان واضحاً أنها تفكر فى دعاباتها بطريقه "الأرأيتيين" .. اعتدنا عليها هكذا وحين تغيب كنا نشعر بالحنين إليها..
"محمود يقول أنه يحبها لأنها ليست إمرأة!"
"يا راجل.. كيف ذلك، هل فتشها؟!"
"لا، لا أبدا.. أنه يعني أنها شجاعة وقوية في مواقفها، الوحيدة التي تتكلم في أركان النقاش ولا أحد يشتكي منها.. وهي لا تشارك في الثرثرة التي تمارسها (حريم) للتنظيم والشّله لا أذكر أن ثمة تقرير رفع عنها لمخالفة ما منذ انتسبت للتنظيم.. أضف إلى ذلك أنها لا تخاف العسس أبداً، كثيراً ماتعرضت للاستدعاءات و الضرب"
"أي أنثى جنون هذه يا أبوعلي، أنها تستحق عبدالله فهو صنديد ولايقل عنها غرابة أطوار، صحيح أن شكله غير محبب، لكن قلبه دافئ ويتسع لكل أحزان الأرض، إنه رجل من طراز خاص!"
"يبدو أنك تريد أن تحرر لهما قسيمتا إنتقال من فرع التنظيم"

"إنها رائعة وهو رائع، لايكل ولا يمل يكرس همه كله للنضال، ينفذ كل تكليفاته بدقة متناهية، دون أن يسأل، لماذا ومتى و كيف؟! أو يقول لا!"
"ربما لهذا السبب بالذات أحبته آمنة، فهذه مواصفات شخص غبي جدا!"

آه يا أبوعلي، لا تزال تحمل جراحاتك.. داخلك وحدك.. سرك الوحيد نوار.. آخر سلالات الكيرا.. سرك الذى لم تُطلع عليه أحد أبداً، حتى خالد الأقرب منك إليك، لا يعرفه سرك الذي تخبئه حتى عن نفسك.. أنت وسلوى..
وحدك ولا أحد غيرك يفهم معنى أن يعشق الانسان نوار.. أن يرتاح كل مساء بين ضفتي عينيها، أن يصطليه لهيبها فيستند على جرح الحراز وأغنيات الجدول و البابور ليرحل حتى آخر الدنيا..
آه نوار.. في هذا الزمان الحذاء، هي الأشياء تتبدى عن الغموض، حتى الإحساس!
لا أدري الآن كيف أحس بك، هو الحزن يشعل الإحساس ويشل الخاطر ويجدد الشعور بالقهر والاحباط، أم هي مطرقة التيه على هذا الرأس، المتوتر القلق، الحالم، حرب إستنزاف هي..
كل التفاصيل تتجرد عن ماهيتها وتصبح الأشياء دون هوية! ياله من شعور مائي زلق! و تمزق عميق كالهواء! ما الذي تعنيه الهتافَات والتصفيق والعيون الدَهِشَة التي زغللها القمع، لا أحد يفهم أن تتقمصك نوار وتحاول جاهدا الفكاك منها! دون جدوى..
تغني في داخلك فتقابلها بالشعارات الهتاف، حباً لوطن لايستوعبك، ضيق.. أضيق من (خرم الإبرة).. وطن تتوسده لافتات الشعارات، وتمشي عليه الهياكل حد الحزن، تبحث لنفسها عن نوار تملأ المدينة فرحاً ونوارس وخضرة، تخرج من بؤرة الشمس لتتناثر عصافيراً وأنجم..
ولدت أنا ونوار طي الجبل الرابع من مارتجلو.. لم يكن أحد يدري أن مارتجلو بجباله الأربع يطوي نينا وآدمو مثلما طوى الكيرا والمعقورا!..
نوار ذاكرة الحراز البري، المقدس وأخت القمر وفاتحة الوجود في لحظة التكوين الأولى، لا لا أحد يدري بالبشارات تجوب الشوارع، حين تصدح نوار بمدائح (قوت الزمان) فى النبي العدناني!..
تجوب الشوارع الحالمة، الضيقة في مرزوق، والقمايز ودار السلام، تقف لتواسى (المجذومين) الذين يقعون كالكلاب أمام الجامع الكبير في قلب السوق العربي، وتوزع الهبات على (شحادين) أبو جنزير والشهداء وسوق الخضار بحرى!... أنها نوار تبعث من الأزقة الخائرة لتلقمها الخلاص، تداعب الصدور التي نخرها السل والأجساد التي هرأتها الكوليرا والجوع والتهاب السحايا!.. وكالمسيح تماماً تملأ الأجساد المنهكة والمنهوبة صحة وعافية!..
هي نوار تستصحبك الآن يا أبوعلي مع سبق الإصرار والترصد ولا يزال (يهوذا الأسخريوطي) ينكرك في اليوم ثلاث مرات، يغرز في داخلك الحزن كنصل صدئ.. يسمم شرايينك، يعذبك ولا تموت، يهوذا في كل زمان أحد أبناء القاع، الوافدين من دماء ألبان محمد علي وغرب افريقيا، ومن كل سلالات الذين باعوا تراب أجدادهم، لا ينتمون لهذه الأرض ومع ذلك يحكمونها!
لم تقل الملكة فكتوريا أن سيف المهدي ملك لشعب كامل! فقط رفضته لأنه قطع رأس غردون!.. يهوذا وقف مع ألبان محمد علي وهم يقتلون الجعليين، ليفنوهم عن آخرهم ويشردونهم حتى أقصى جنوب النيل الأزرق، في أرض الحبش!.. يهوذا الآن.. يهوذا..
يا أبوعلي لم يكن الشلالي وحده!.. ونوار.. أين هي؟!
كلهم شاركوا في حرق جثة المهدي، ونثروا رمادها في النيل، كان يهوذا يتوسطهم.. ومنذها ظل يتوسطهم!..

أشعر بالخطر.. بالعسس.. أرجينى يانوار.. سأتقدم لو أستطيع لألتقيك عند بوابة عبد القيوم، أتكئ على صدرك المذبوح قليلاً، وأصرخ: أنا الآن الرهينة!.. وأمسح غبار الأيام عن جفني المجهد وأحملك حتى آخر الدنيا على صهوة جواد لم يركب مثله موسى ودجلى.. فأنا الآن الرهينة، وأنت الآن يا نوار احترافي وحتفي.. أغنية ليست مثل أغنيات (التروبادور) بل كالسيل، الفيضان.. تزيح أنت التاريخ المتعفن، المقعي ككلب مشرد ضال على حافة الحلم، مهجس بعظمة!

هدب نوار يرف وأبوعلي يدنو والجلباب الواسع الذى ترتديه ينحسر عن الغيب والمجاهيل والجو بارد، والوطن دفء، وللهواء طعم الشهيق، الزفير ولون النيازك والشهب!
احساس حاد حد الفجيعة والحزن والجنون، ورائحة الدمع والغروب وملامح الطفلة التي رحل عنها القطار وتغولها آخر المساء الفاتن المجنون، وشقوق الأرض الزراعية القردود الشقية الشبقة للمطر..
الأرض ونوار نسجتا أغنية حارة يتخللها صهيد الحماسة، أزيح صدرها المثقل.. ليس ثمة ذكريات وهموم شقية، ليس ثمة قلق وتوتر يلمان بالذاكرة فتسهد، فقط تقض مضجع القلب ، الظامئ لرحلة إبن بطوطة.. ليس ثمة (حُوَّار) دنئ لامام دعي وشيخ سافل، تبيت زوجته موحشة في الليل البارد والفراش الخاوي إلا من جوعها، رغم جسده المتمدد جوارها.. يوحي بأن ثمة أسرار ما!
تماماً ليس من شئ ينقص عليَّ هذا لتكتمل الدوائر الشقية!.. كم هو شقي هذا العالم يانوار!.. لزج وبارد كالحذاء المتعفن! كم هو شقي ألا تنساب فى لحظة دفق دافئ:
"لنتزوج!"
"لنتزوج!"
وغابت دوائر النور في الظلام (الجروف) تحرق رائحة خضرواتها في القلب، تشعل الدم، تصهر الشرايين.. الكحل المتسايل على العينين وصوت البابور والجدول يتضائل كل شيئ.. ويتلاشى..
تتسع الفجوات والفراغات والدوائر، تتقبض، تفيض.. يا بحر.. يا دم.. لم تكن ثمة نهايات، تماماً كرحلة (جلجامش) الطويلة في اللانهاية بحثاً عن قيم الحق والجمال يا نوار!..
ليس ثمة نهايات إذ لم أكن آخر الغازين، لديار لم تعرف الشقوق بين ضفتي أُنثى (تشم) للمرة الأولى رائحة العرق الذكوري الفحل.. تتفتق بها عن أفوافها المختبئة خارج الغمد أو القلب الذي يتوشح بالسباسب والوهاد..
هو الظمأ الذي يقتل هامش المدن وسكان الأرياف والصحارى البعيدة، لنبحث في دواخلنا عن وطن يوحدنا يا نوار..
أدري جيداً طعم تلك اللحظه الانصهار، لم أكن ثقيلاً وكنت تُطيقين الخروج عن نفق قصور بني أمية والعبابسة وقباب بنى حمدان!..
الجسر متكأنا يا نوار، لا الرصافة، فما بينهما جسدان لقلب واحد!.. روحان في جسد واحد!
"لنرحل.."
"لا، لا.. لا سأبقى!"..
لم تكن نوار وهماً، قالت أمي:
"الولد ركبتو جنية!"
ولم يدر أحد بسر ـــالذى في القلب أغمد نصلهـــ رحلت نوار ولم يكن ثمة حلم بديل، مداراً للوطن الذي يرحل عميقا في الوريد، يرحل في داخلنا دولة! نزرعه في حدق العيون؛ فيحصده الآخرون، الجحيم!..

هنا كان يعمل الأجداد أقناناً، يزرعون القمح والقطن وأشجار الفواكه، لترتفع أرقام أرصدة المالك الطائفي الوحيد في بنوك لندن!..
سيدى الكبير كان يوصيهم يانوار بزراعة أشجار النيم! لانه من أشجار الجنة كما زعم! فظلوا يأكلون النيم من المبتدأ إلى المنتهى!.. كانوا يتركون له أسواق المانجو والموز والبرتقال، وحده لا شريك له! ولامنافس، فقط وحده! يقطعون له الأشجار لتتغذى مصانع لانكشير بالخشب الذي تصدر منه الورق إلينا.. الورق الذى تكتب عليه مراسم إعدامنا!..
كانوا يا نوار على ثقة تامة أن أي شجرة يقطعونها له، سيأخذون مقابلها متراً في الجنة، لذلك لم يكن أى واحد منهم يحلم بأقل من عشرات الفدادين في الجنة الموعودة! إنهم أهلي.. أهلك يانوار!..
كانوا يهربون أطفالهم من المأمور الإنجليزي، عندما يحين موعد دخولهم المدارس، لأن المالك المبجل أوصاهم بالخلاوى خيراً، وخطب فيهم أن:
"مدارس النصارى ستخرب عليكم الاولاد!"
فيما كان يدرس أولاده شخصياً في أوروبا!.. هى لحظة دفء، تنسي القلب عذاباته وحزن عشرات السنين، هي المتاهة ما يبتدى عنه لوز القطن الذي تأخذه القطارات إلى لندن، ليكتمل إزهاره هناك ولندخل نحن في مزيد من الحنين إلى الحنين إلى شفق!..
مبارك من في الأرض يحمل حزنك يا أبوعلي، طوبى له وهو يحمل وطنك كالحقيبة و العار يلاحقه أينما ذهب، يسافر خلاله ظلاً لفانلة داخلية وسروال ممزق! وذلك الجلباب الذي حسرته تلك الأمسية المجنونة على البابور! لتقذف شيئاً من وطنك في الظلام الجميل!.. هذه الأرض تنمو شيئاً فشيئاً في الغياهب!..
تسبل نوار أهدابها الطويلة!.. ترتخي رموشها الوطفاء على حضن أبوعلي.. ترتعش..
"لا أحد يخاف الوطن يانوار!.."
وبرغم كل شئ لم يكن ما برحم نوار لك يا آخر سلالات بني ذبيان وفزارة، لم يكن لك كما الوطن.. نافذتين لقلبين يبتعدان ومهاجر من حيث كان إلى حيث يكون.. بعيداً، بعيداً ترحل في الغيوم!..
أواه.. وهذه الطحالب والفطريات التي نبتت في كل مكان، اختبأت خلف كل شئ فأين الملاذ!.. لا تدعهم يرفعون المصاحف على أسنة الرماح يا أبوعلي، فلست متهماً وقميص عثمان فرية، وأبداً لم تكن يوماً اليمامة، حبيبتك.. وكل المرابين الذين يتكئون على العمارات السامقة (جساس) وليس ثمة أقوال أخرى عن القادم من خط الاستواء، كمدينة من الحلم تشرع أبوابها دون حرس، لتنفتح على عرصات حران!.. أنا باب المدينة يانوار.. فأين المدينة؟! وهذا البرد يصلب جسدك للدفء، ليتقطر الحب نديا شفيفا، أعلى رابية تطل على جدول مسكون بالخرير الحرير!

كان أبوعلي لايزال يتتبع خطى خالد بينما أحس بأنامل ناعمة تحط على كتفه:
"أبوعلي.. شهاب"!
"أهلاً.. أهلاً سلمى.. كيف حالك؟.. لم أراك منذ الصباح"
"فضلت إعتزال الشلة اليوم.. لم أرغب في المجئ إليكم"
"خيرا!.. ماذا هناك؟.. مابك؟!"
"لقد تقدمت باستقالتي.. أقصد سأتقدم بها!"
"لماذا؟!"
إستدرك أنه مارس سلوكاً غير نظامياً، فهو ليس مسئولها المباشر.. أدار الأمر فى رأسه وتنهد:

"أولم تناقشي هذا الأمر مع مسئولك المباشر؟!"
"فضلت أن أخبرك أولاً.. فأنا أعرف أنك في قيادة الجامعة، كما أنك الأقرب إلىَّ أستطيع أن أكون صريحة معك أكثر.."
حاول مقاطعتها فأسكتته بحسم:
"لا يا أبوعلي، أرجوك اسمعنى للآخر.. أعلم تماما النظم واللوائح التي تحكم عمل التنظيم في فترة النضال السري، وكل شئ"
كان أبوعلى يعي أن هناك ضرورة أحياناً لخرق هذه النظم واللوائح:
"إهدئي ياسلمى وأخبريني ما الذي حدث بالضبط ؟!"
"الأمر يتعلق بمحمود!"
"ماذا أفعل؟!"
"أهانني أمام صديقاتي في المدرج"
ود لو يصرخ في وجهها: ـــوما علاقة التنظيم باهانة محمود لك، محمود عضو مثلك وهو ليس التنظيم، ما هذا العبث، لكنه تحكم في أعصابهـــ قال لها بهدوء:
"لا تهتمي يا سلمي، فمحمود ليس التنظيم، وما فعله خطأ كبير يستوجب تطبيق اللائحة الداخلية عليه.. أقدر مشاعرك تماما، فمن المحزن ألا نحترم مشاعر بعضنا.. لكن هذه ليست هى القاعدة الأساسية التى تحكمنا.. محمود حالة فردية سنعالجها في إطارها الموضوعي ياسلمي.. فأرجوك أعطيني الفرصة لمعالجة الأمر مع المسؤول المباشر لمحمود.. ولا تحاولى أن تخلطي بين استمرارك في التنظيم والسلوك الذي مارسه تجاهك فرد في التنظيم. فكل العلاقات والأحاديث التي خارج إطار قواعد التنظيم تمثل أطرافها فقط ولا تمثل التنظيم يا سلمى"
"كنت واثقة أنك ستقول لي ذلك!.."
"وأرجو أن تكوني قد تراجعت عن قرارك!"
"لا أستطيع أن أرفض لك أنت بالذات طلباً، يا شهاب.. أنت.."
قالت فى صوت هامس، وقبل أن تكمل أشاح بوجهه بعيدا، وهو يتحدث في سره:
"أرجوك يا سلمى لا تورطيني، لا مكان للعواطف فى عملنا يا سلمى.. إننا مناضلون وتربطنا ببعضنا علاقات موضوعية.. يجب أن تفهمي ذلك، ويجب أن يكون دافعك الأساس لاتخاذ أي قرار هو قناعاتك ومبادئك.
الانفعال العاطفي يجعل الإنسان عاجزاً حتى عن مجرد تأمين نفسه ياسلمى، وعاجزاً عن توقع الخطوة القادمة للخصم والاستعداد لمواجهته.. العسس لا ينتظرون المناضل حتى يهدأ ويفكر ماذا يفعل.. هل تفهمين ما أعنى ياسلمى؟.."
ود لو إمتلك الجرأة والشجاعة الكافية ليقول لها ذلك، لكنه لا يستطيع، إذ سيبدو قاسياً إلى حدٍ لم تكن تتصوره، شعر بثقته في نفسه تهتز، ولم تكن هي قد توقفت عن الكلام، الذي لم يسمعه، لكنه يحسه، ولا يريد لها أن تتعلق بأمل كاذب.. من جهتها، كانت تشعر بمحاولاته الدائمة للتهرب من عواطفها تجاهه، وعندما أحست أنه انسحب إلى داخله بعيدا عنها، لا يسمع شيئا مما تقول، ابتعدت وهى تخفى وجهها براحتيها فشعر بقلبه يتمزق، وواصل طريقه مترنحاً، غائم الرؤية.
عندما أخبر أبوعلي عبدالله بما جرى بينه وسلمى، قال الآخير بهدوءه المعتاد:
"هكذا هم المؤيدون لخط الحزب، دائماً، لا يستطيعون تحمل أمراض الواقع وتجاوزها إلا بعد وقت طويل تتخلله الكثير من الدورات الحزبية الصارمة!
ولكن في مثل ظروف النضال الحالية من المستحيل عقد دورات تأهيلية في التنظيم والآيديولوجية، وأساليب مواجهة أجهزة القمع وتنظيمات السلطة، فالتأمين لهكذا دورات بعيدا عن عيون الامن أمر عسير جدا.."

سكت لبرهة ثم أضاف:
"انها ظاهرة ليست محصورة فى سلمى يا رفيق!.. كما أن كل القوى السياسية تعاني من مثل هذه الأمراض، قليل من الصبر و العناء، وستؤتي المواد التثقيفية المختصرة والمكثفة في الاجتماعات القصيرة ثمارها"
قاطعه أبوعلي:
"لا أدري لماذا يسميها الحزب أمراض؟!"
"وما الاسم الذي تقترحه أنت؟!"
"أنا لا أقترح شيئا، ما أعنيه بالضبط أننا بشر قبل كل شئ، شخصيا قلت لها نفس كلامك بطريقة مختلفة، لكنني لم أكن مقتنعا بما أقول.."
"لا أفهمك، أفصح عما تريد قوله بوضوح!"
تمعن فيه أبوعلي بنظرة عميقة لا تحمل معنى محدداً.. ثم زفر:
"دعنا من ذلك الآن، هل ستتكلم مع محمود؟!"
"افضل أن أترك لك هذه المهمة، نزعة القيادي فيه طافحة هذه الأيام، وهو لايطيقني أصلاً!"
أبتسم أبوعلى فى سخرية:
"حقه الطبيعي، فالجميع يؤدون دور الكاريزما، لم لا يؤديه هو الآخر!.."
"ماذا تعني؟!"
"أنت تعرف ما أعني، و ليست لدي الرغبة في سماع محاضرة عن كون النضال السلبى سبب أساسي في عدم عقد المؤتمرات منذ 1976م.. فقد أصبح الحديث عن ذلك ممجوجاً!"
"يبدو أنك.."
قاطعه:
"يبدو أنني أصبت بأمراض الواقع، أليس كذلك؟!.. حسناً!.."
قال عبدالله بهدوء حزين:
"لماذا تخاطبني بهذه اللهجة يا شهاب؟!"
"عذراً يا عبدالله، لكنك تصر دائماً على ترديد نفس المقولات دون أن تملها.. أنك تعلم الحقيقية، أو ربما تشعر بها.. لكنك لا تريد مواجهتها، لا يوجد شئ اسمه أمراض الواقع يا عبد الله!
هذا القول مجرد آلية ضمن آليات أخرى يختبيء خلفها قادة الحزب الذين لم ينتخبهم أحد أساسا لقيادة الحزب، أنهم يختبئون خلف مثل هذه الميكانيزمات الدفاعية، بحجة حماية الحزب، ولكن الحقيقة لتكريس أنفسهم قادة إلى الأبد، مايحدث هو باختصار انعكاس للأزمة الحقيقة، فالنتائج لا تنفصل عن المقدمات، لايمكننا تصور أى شئ خارج نظام تفكيرنا!
لماذا أربكنا انهيار الاتحاد السوفيتي، تداعي المنظومة الشرقية والغزو العراقى للكويت.. والاطاحة بنظام الحزب الواحد في العراق، لماذا حدث ما حدث أصلاً وكيف؟!
ثمة تناقضات لما نحمل من مفاهيم، نحن لا نزال نقرأ الفكر الانساني العالمي المعاصر بذات الطريقة التراثية التى نقرأ بها التراث اليوناني مثلاً وهي ذات الطريقة التي نقرأ بها تاريخنا الخاص!
باستمرار نعيد إنتاج الماضي بأخطائه ومؤامراته وقرفه! يا رجل نحن ندرس الأشياء على أساس ما نريده منها لاعلى أساس ما الذي كان يريده من أسس لها، أياً كانت هذه الأشياء!
وهكذا نصف كل ما لا يعجبنا بأنه أمراض واقع! لذلك لن نستطيع مبارحة هذا المكان، الضيق، العطن.. هذا الزقاق، المتاهة.. زقاق التاريخ الذي نعيش فيه.. يجب أن نعترف أننا بحاجة لأن نتصالح مع ما يحدث حولنا، دون تصور مسبق.. لنحاول اكتشاف أنفسنا، واكتشاف ماحولنا.. يجب أن نعيد قراءة ما حولنا من تفاصيل يا عبدالله، كل

التفاصيل.. لايعني شيئاً الحديث مع محمود إن لم يكن ذلك في إطار التناقضات المتراكمة في وعيه ووجدانه الثقافي، ولاوعيه.. هذا هو السؤال، المتعلق بكل اشكالات الراهن، وما نصر على وصفه "بأمراض الواقع!"
"هل أنت مدرك لما تقول يا أبوعلي؟!"
"تمام الإدراك.. لأنني أشعر بالمتاهة التي أقعي فيها كالكلب.. أوربا التي نكيل لها "الشتائم" دخلت التاريخ عندما خرجت من دائرة الفلسفة اليونانية، بعكسنا تماماً يوم دخلنا الدائرة التي خرجت منها أوربا، دون أن نهتم بمحاولة الخروج.. مجرد محاولة الخروج من هذا النسق المغلق.. لم نتعلم الدرس من الاوربيين، بل قمنا بتقنين الانغلاق!"
"اسمع يا أبوعلي.. أنا أعلم أن هناك كثير من الأزمات التي حاصرتنا مؤخراً على المستوى الخاص والعام وهي تؤثر فينا وفي طريقة تفكيرنا، فكل شئ حولنا يتغير لكن المعالجات لن تكون خارج إطار المؤتمرات، وإشاعة المزيد من الديمقراطية، في الحياة الداخلية للحزب"
"هذا كلام جميل لكن الاعتراف بالتحولات العميقة التي تتم.. ليس مجرد تضمين في منشور أو بيان سياسي ممهور "بإلى جماهير شعبنا الصامدة"، أو إصدارة. بل هو سلوك بشكل أساسي والسلوك لايتطور إلا وفق تشكيل وعي حقيقي لا كما تريد العقلية الستالينية ومنظمتها السرية التي جعلت من التنظيمات اليسارية تنظيمات عسكرية مركبة!
قل لي ماذا تم ياعبدالله حتى الآن في الإصلاح الحزبي، لا شيء مجرد تلميحات مذعورة وخائفة.. البوليس الذى يعيش داخلنا و يتحكم في التنظيم وفي الواقع.. لا شئ ياعبدالله، لاشئ!"
"يجب أن نستعيد قوانا أولاً يا أبوعلي.. يجب أن نتماسك حتى نستطيع أن نفعل كل شئ"
"لكن هناك مداخل للحلول نستطيع ممارستها منذ الآن"
"ماذا تعني بمداخل للحلول؟!"
"أن ندير الحوار داخلياً، حول "الجدوى" من طروحاتنا.. ارتفع حاجبا عبدالله:
"يجب أن نكون أكثر جرأة وشجاعة، عندما نسأل أنفسنا عن "الجدوى" ليس بالضرورة أن ذلك يعني أنها لم تعد مجدية كلها.. إنه سؤال مشروع: لقد أختبرنا طروحاتنا، جزء منها على الأقل، لنقم بتقييم هذا الجزء!"
"بل أنها مهمة كل فرد فى التنظيم، وإلا فكيف يكون التنظيم وعي جماعي منظم. آراءنا لها قيمتها!"
"أنت لست مجرد مجند جديد يا أبوعلى، مابك؟! هذا جنون؟!"
كان صبر عبدالله قد نفد تماماً فاحتد أبوعلي:
"طبعاً ستصنفني حالة مرضية.. عفواً لست بصدد سماع ما قرأته عن تفتيت الحركات الثورية، لا ياصديقي.. كل مافي الأمر أنني أكثر وضوحاً وشجاعة.. هاتين الصفتين الغائبتين هنا و أبداً.."
"سأرفع وجهة نظرك.."
"ليست هي المرَّة الأولى التي ترفع فيها وجهة نظري.. وعلى كلٍ أنا أؤمن أن أي تغيير فاعل يتم من الداخل أولاً.. هل تعلم لماذا تقدم حسام باستقالته؟ لأنه يشعر بالمتاهة.. هذه المتاهة التي لن نخرج منها مالم نحفر ذاكرتنا.. ننبشها.. نصدمها.. حسام إصطدم بالخيط الفاصل بين ماهو معرفى و ماهو آيدلوجى!
أكتشف أن المعرفي يموت في زمن غير زمنه، لكن الايديولوجي يحيا في الحاضر، يعيش مستقبله في حاضره، فلم يحتمل.. أنها عملية تمزق تام ياعبدالله ويجب أن نحتملها، واذا كان للتنظيم أي تفسير آخر لظاهرة الاستقالات، فهو واهم.. ليسمها وفقا لمنهجه الجدلي العقيم المنسوب إلى العلم جزافا، أى شئ.. فلن يغير ذلك من الواقع والحقيقة شيئاً!"
"أنت تصور الأمور بطريقة غريبة ياشهاب! كذلك الرجل الذي وكل محاميا للدفاع عنه، فأخذ المحامي يسرد بتفصيل وأسلوب محزن للقاضي مدى الظلم الواقع على موكله، فأخذ موكله يبكي، فسأله القاضي:
"لماذا تبكي؟"
فرد من بين نشيجه:

"لم أكن أعلم يا مولانا أنني كنت مظلوما لهذه الدرجة"
"إنها الحقيقه يا عبد الله.. أنظر المفكرين المسلمين اسسوا فلسفاتهم على طبيعيات أرسطو.. تماماً مثلما فعل فلاسفة القرون الوسطى.. لكن المحتوى المعرفى لطبيعيات أرسطو مات بميلاد العلم الحديث وبذات الطريقة ماتت المنظومة الديكارتية أعني المحتوى المعرفي لها، ففيزياء نيوتن تموضعت فى فيزياء غاليلو ولم يكن ثمة مبرر لحياة الديكارتية إلا كتجلي.. كروح مثلما سيطرت الروح التجريبية على بريطانيا.. و نحن أول شئ فعلناه، قوضنا إبن رشد.. ففتحنا الباب لقوى الظلام التي نعاني منها الآن لم نعي إبن رشد أو نعيشه.. أنه الروح التي كان بالامكان أن تخرجنا من المأزق لو بعثت.."
كنا قد لاحظنا أن ثمة حركة دائبة حولنا.. همس عبدالله بحسه الأمني العالي، في محاولة أخيرة لهروب نهائي من فضاء الحوار:
"يبدو أن وراء الأكمة ماوراءها!"
"سمعت أن ثمة إعتقالات طالت حتى الاقاليم!"
"لذلك صدر تعميم داخلي موخراً من القيادة أن تتم الاجتماعات فى البيوت، بدلا عن الجامعة والداخليات.. هل تستطيع إستضافتنا في بيت أختك؟!"
"على الرحب والسعة"
"أنا أيضاً هاجمني نفس الشعور، لكن خشيت أن يكون ذاك مجرد هاجس لذلك لم أبح به!"
"خذ حذرك!"
"بالمناسبة أين أجد خالد، هل رأيته؟!"
"لقد سافر.. يبدو أن أزمته مع خالدة قد وصلت حدودها القصوى!"
"لم يخبرني.. أول مرة يفعلها.. لكن هل أنت متأكد من أنه سافر؟!"

تنهدت سلوى بعمق، وهي تجوس بعينيها في دواخله، ثم قالت:
"كان الكلس يا شهاب قد اعتاد أن يكون وحده (كأبي ذر)
وفيما كان يمشى متفقداً بلدته التى شمخت في قلب (الصَّى) أبصر (هيلدا) أمي.. كانت صبية كالبدر عند تمامه لم يرى فى حياته مثلها، فصاح:
"بخ، بخ.. يا سعد من تكونين حليلته"
وهكذا تزوج الكلس من أمى ياشهاب في ذلك الصَّى القاحل، وعاشا فى سعادة وسرور إلى أن جاءت الحكومه بخدمها وحشمها ووقعت المعارك الطوال، وتلاشى الكلس فى الصحراء الممتدة وأبتلعته وديانها التي جاءها غازياً ذات يوم، ولاذا إليها هارباً..
لم يستقر المقام بأمى.. إذ كان هاجس القبض عليها يملؤها بالخوف والهلع، الذي كان يزيده الاحساس بفقدان الكلس، مرارة وحرقة..
كان خوفها علينا أكثر من خوفها على نفسها.. هذا الخوف كان الدافع الأساس لإنتقالنا في سرية تامة من مدينة لأخرى، ولم نستقر في مدينتكم إلا وقد بلغنا سن المدارس..

أذكر أن أمي في الليالي المقمرة، كانت تجلسنا عن يمينها وشمالها، وتحكي لنا عن شعب اللوة العظيم ورحلته الشاقة من أوروبا إلى البلاد الكبيرة، إثر إنهيار الجليد..
كانت تحكي عن الحرب التي دفعتها وأسرتها إلى الهجرة الى أسفل النيل، تجدد مسيرة شعب اللوة العظيم.. لم تكن تحمل بغضاً (للمندكور الجلابي)، ولم يكن الكلس مجرد بعلاً لها، كان هو ودينج. كل دنيتها و دنياها، لذلك ظلت وفية للعهد، وفية لذكرى الكلس هذا الوفاء النادر الذي عبأني بالحنين إليك.. كافحت أمي لأجلنا طويلا يا شهاب، دون أن تمد يدها لأحد، لأننا أبناء الكلس..
وكان لها جنوح نحو الصحراء، علها ترمي لها بالكلس ذات إنتظار، ليعوضها عن كل ما ضاع من عمرجميل.. وكلنا كان يداعبنا هذا الأمل.. وذاك زمن مرير، وله طعم خاص.. عندما أذكره أشعر بغصة في الحلق، ويشتد على الحزن وتدلهم الحياة في وجهي وأبقى بين حاضرة وغائبة عن الوعى..
انتقلت أمي.. انتقلت إلى حيث لا يستطيع أحد اتهامها بالتخابر مع دولة أجنبية، أو العمل مع منظمة سرية.. انتقلت إلى هناك حيث الشفق المخملي والأنهار (المسكرة) لأنها كانت طيبة.. وإلى هناك لا يمضي سوى الطيبين..
ألم يقولوا أن الجنة لا يدخلها سوى الطيبون يا شهاب؟! ليتك تشعر معي بكيف هو الإحساس بالمطاردة، الإحساس بالغياب الأبدي.. الإحساس بكل من حولك، أي واحد منهم.. لو علم من أنت، قد تختفى إلى الأبد!
تحملت أمي عبء هذا الاحساس لسنوات طويلة، إلى أن أخذها الضباب السماوي الأخير!.. تحملته دون أن تشكو فعروقها التي تجري فيها دماء (دينج) تجدد فيها الإحساس بالقدرة على الصمود والمقاومة!..
لكننا كنا نشعر بمدى ثقل العبء عليها!.. كانت أمي في الأوقات التي يحاصرها فيها الصفاء ترقص وتغني (بالرطانة) أغنيات الصيد والحرب والحصاد.. ترقص حتى يتقطر العرق من جبينها ولا تتوقف إلا بعد أن نحاصرها بالاشفاق، وسواعدنا تحاول تقييد حركتها، فتستجيب على مضض.
كانت أمي على دين أسلافها.. ومع ذلك حرصت أن ننشأ كما يليق بأبناء الكلس وعلى دينه.. لم تحاول التأثير على عقيدتنا.. عقيدة الكلس، أبداً.. كانت قدر الإمكان، في طفولتنا، تحاول تأدية صلواتها الطقوسية خفية منا، إلى أن إشتد منا العود.. لكأني أسمع الآن ترانيمها الدينية، المتسامحة، التي لطالما ملأتني صفاء وصفح!..
أخبرتني يا شهاب أن والدي يكون في أوج سعادته وهو يسترق السمع إلى (ترانيمها) المقدسة، وهي تصلي.. كان يحبها و يحب كل شئ تحبه، وكانت تعتقد طوال حياتها، أنه يسمع هذه الترانيم عندما تصلي، مهما نأت المسافات!
هكذا كانت هيلدا يا شهاب، وهكذا كان الكلس الذي غمرنا بحبه رغم الغياب العذاب.. الكلس الذي عَمَّرَ الصحراء، وبنى فيها بلدة شمخت تباهي المدن!.. إننا أولاده، أولاد الكلس الذي قرر ذات يوم السكنى في حَّي قاحل، و شمخت بلدته في قلب الفلاة!..
الكلس يا شهاب سيحمل رايته علي، يعمر الأرض، و يآلف القلوب، وبالناس المسرَّة وعلى الجميع السلام!..
"حيطلع على خالو عتام!"
"ومالو خالو عتام؟.. زينة الرجال!.."
"إنت متعلمة ومثقفة يا سلوى!"..
"كانت أمي تقول لعتام عندما تراه يلعب:
"ستحمل الراية التي سقطت من أبوك يا ولد.. قوم، إنت ما عندك وقت للعب، الراجياك جبال هموم!"
فكان يترك كل شئ عند سماع صوتها.. لا توجد قوة في الأرض تستطيع التأثير عليه كما تفعل هي!.. ظل التاريخ يطاردنا يا أبوعلي، ما إن اشتممنا رائحة مؤامرة ما! حتى هربنا! كنت وعتام حينها قد أنهينا دراستنا الثانوية.."
هربنا إلى بلاد يموت فقيرها جوعاً، فالخرطوم مدينة تخلو من المؤمنين، منها خرج الكلس وإليها يعود أبناءه!..
لا زلت أذكر الكلمات الأخيرة لأمي وهي في النزع الأخير!..

"أغفري لي يا بنيتي أن زوجتك حاج عباس، لا تبقى أرملة تزوجي ليطلع من رحمك الكلس!.. و لو أخذ صاحب الأمانة أمانتو فلا تزعجي عتام أخوك في بلاد الغربة"..
وماتت أمي يا شهاب، بكيت عليها كما لم تبكي فتاة أمها من قبل و لا من بعد.. و التزمت البيت حزناً لسنوات، و كاتبت عتام حول كل شئ سوى الحزن على الفقد الكبير..
إلى أن عاد وعرف بالأمر، إحتضنني بحرقة و ألم يذوب فيهما شوق سنوات أعجف من سابقاتها وبكى كما تبكي النساء:
"لماذا لم تخبريني؟!"
"لم أود إزعاجك في بلاد الغربة!"
"لكنها أمي!"
"وأمي أنا أيضاً.. لقد نفذت وصيتها.. قالت ألا أزعجك في غربتك.."
وظل عتام يبكي لسبعة شهور كاملة، مرّت كلمح البصر!.. على يا شهاب سيحمل ملامحك أكثر من ملامح خاله، هذه الأرض لنا، لنا نحن حفظة أسرارها وحراسها المخلصين!
نحن أولئك الذين جاءوا من أقصى مجاهيل البلاد الكبيرة شرقا وغرباً و جنوباً و شمالاً وتمازجوا في الحَّي، حتى الكلس الذي ينتمي إلى الصحراء، و سُمي عليها!..
"وهل يستطيع علي فعل شئ، سيحاربونه مثلما حاربوا جده، سيحاصره الإعلام المسكون بالوساوس القهرية وعصاب الدين.. وتتهمه السلطة بالطابور الخامس وتطلق خلفه آلاف المخبرين ياسلوى!..

وكأني أراك الآن لن تطيقي صبراً، فأنت لست هيلدا..
"لهكذا ياشهاب ولد.. عليه يحيا وعليه يموت!.."
لن يموت ياسلوى من تشكل وعيه بفلاة الكلس! ..
لاتزال متردداً تجاهي ياشهاب.. بين.. بين نوار وسلوى بين الفنانه التشكيلية التي زارت مدينتكم فى وقت ما وأقامت معرضاً للوحات بينها لوحة لنوار.. كما أوصتها نوار وبين أنا.. ومع ذلك سنتماهى يوماً في المارتجلو.. ليولد علي فارس القبيلة الحامي!
"أنك تصرين على كاريزما الفرد في الزمن.."
قاطعته:
"من قال أن زمن (لكايزمات) قد إنتهى، لا تزال قدرات الفرد الشخصية ومواهبه الفردية تلعب دوراً حاسماً في..
قاطعها:
"لا، لا أستطيع فهمك ياسلوى!.."
"وهل كنت تفهم نوار؟!"
"أحياناً تبدين بسيطة، بروح الفنانة التشكيلية الشفافة، وأحياناً تبدين طاغية"
"في كل شئ؟!"
همس:
"حتى في جمالك"
"ونوار؟!"

"ألم تقولي أنها أوصتك بي خيراً.. أمرتك باقامة معرض في مدينتي في وقت ما؟!"
"لنلتقي!.. كل ذلك لنلتقي كما تريد نوار!"
"ومع ذلك أحبك أنت ياسلوى، وأنت لست نوار.. أحبك.."

يشير التاريخ المرسوم على عروق مارتجلو، أن شعب الوادي بدأ يفقد تدريجياً مقوماته وخصائصه التي توارثها عبر آلاف السنين.. ومنذ تعاقب على الحكم السلاطين: (دورة، كورو، قرط، دالى، بوش، دود بنقا، أبو الخيرات، على دينار، سليمان، صولونج، ايفا وتوسام..) أخذت ملامح هذا الشعب تأخذ في التغيير..
وإلى حد ما كان محافظاً حتى مجئ سلالة الكيرا، بدءً بالسلطان كوري والد سليمان العربى (1640-1667) وبنهاية حكم دينار فى 1916 ، كانوا قد فقدوا ماتبقى من نفوذ مارتجلو!
لكن لم يكن من السهل أن يرتد التاريخ على قفاه من السلطان دوره وإلى الخلف! ومع ذلك بقى الحنين حتى ليكاد يتجلى في حلم علي دينار بدولة مستقلة عن الفرنسيين في غرب مملكته والمهدية والمصريين والانجليز في شرقها!..

تنهدت نوار تنهيدة عميقة، استغرقتها دهرا كاملا قبل أن تحكي:
كانت أمي وأبي يناديانني (بنينا) لكن شيخ بابكر هو الذى أسماني نوار..
جدي لأبي من سلالة تاج الدين البهاري، تلميذ الشيخ عبد القادر الجيلانى.. كان شيخاً ورعاً وتقياً ولزواجه من جدتي في سنار قصة طويلة، فقد زعم كما أخبرتني أمي عن أبي، أنه رأى جدتي في رؤيا وهي تضع أبي تحت شجرة حراز! كان المكان صحراوياً، قاحلاً! خالي من كل حي، إلا شجرة الحراز..
ومع الصرخة الأولى لميلاد أبي وعينيه تريان النور، أخضرت الأرض القاحلة وأثمرت شجرة الحراز شيئاً ما لا هو باللحم لا هو بالنبات!
يزعم جدى أنهما المن والسلوى! فأخذ يبحث عن المرأة التي أنجبت له في الرؤيا هذا الجنين الذى يحمل الخير الوفير، حتى وجد أمى بعد بحث مضني!
زفرت نوار، زفرة حارة! وتنهدت وهى تضيف:
ولقصتي في جبال النوبة شأن كبير، فقد سبيت أمي ذات خريف يانع، إثر هجوم البدو الأقحاح على سنار.. قطع بها الغزاة الفيافي والقفار إلى أن نال منهم التعب وأخذ منهم كل مأخذ! فاستراحوا عند جبال (كتري) وعندها سنحت لها الفرصة فهربت وهم غرقى النوم العميق!..
"ولم أجد نفسي (هكذا قالت!) إلا ومحاربين أشداء من النوبة يحيطون بي إحاطة السوار بالمعصم، وأخذوني إلى أحد جبالهم.. كانوا يتبعون لإحدى سلالات نوبة الشمال الذين هرب بهم (حسن صاي)، فقد ترك هو و(خشم) بيته النوبة الشمالية حين أدرك أن جيش الألبان والمصريين الذين أرسلهم الباشا محمد علي، لا محالة قاضين عليه وعلى أهله، لأنه لم يستسلم كما أستسلم نظرائه من مشايخ الشمال!.. فدخل إلى هذه الجبال و صاهر أهلها..

قالت أمي (وكانت إمرأة صالحة) أن جدي كان حواراً للشيخ الهميم وكان يعرف الكثير عن لغة الطير والحيوان وعنده أسرار الأنس والجان، كان يدنو أو يبعد قليلا عن النبى سليمان..
وتضيف أمي عن أبي عن جدي.. كيف أن جدى أصبح (حوار) (للشيخ الهميم)، فتقول:
هذا أمر يحكى وقصته تطول، ويتسع شرحه! إذ كان دون أهل بيته جميعاً كالوثنيين، يبعد عن السماء عنوةً!.. للحد الذي تكاد تجزم فيه أن (سمعته) هناك لا سيئة فحسب، بل لا (سمعة) له إطلاقاً..
كان لايعرف سوى (أندايا) (وردة) بطرف الحلة، ولايجيد سوى الإمساء في (المريسة) والإصباح عليها، إلى أن سمع هاتفاً ذات ليلة فأصابه الخوف والهلع ومنذها تغير حاله! .. وهكذا كان.. أصبح (حواراً) للشيخ الهميم، ويطيب له مثل الهميم، التجلي في حضرة (منانة) (ضاربة الدلوكة).
كان بطبعه قليل الكلام ولا يفضي بسريرته لأحد! لم يحكي سر رؤياه أبداً ولم يتكلم عن تفاصيل الهاتف الذي ألم به وهو في طريقه من بيت (وردة) إلى بيته، فظل ذلك الأمر سراً حميماً، إلى (أن أخذ صاحب الأمانة أمانته)..
هناك بعض الروايات التي تزعم أن الشيخ هدد جدي لأنه اكتشف أن هناك من زرع شيئاً في رحم ابنته البكر! ولم يكن ثمة متهم آخر!..
نسب أبي غريب، فجده الذي اشتراه العمدة الكبير من تاجر الرقيق الشهير الزبير باشا ود رحمة أولد احدى جواري العمدة بنتاً..
ترعرعت البنت ونمت وكبرت، ولم تكن ثمة أجمل منها في الديار والديار المجاورة ووقع بينها وبين (المانجلك) الأصغر هوى، فجرى بينهما المسطر، فأنجبت له ولداً كالقمر الأزهر، لم يعترف به أحد، فظل بلا إسم..
هذا الولد هو أبى..
هكذا كانت تحكي لي أمي عن أبي وأنا بعد صغيرة، تشربت ذاكرتي بكل حكاية عن السلالة التي انحدرت منها، وكانت أمي تحكي لي، منذ نعومة اظافري حتى بلغت الثانية عشرة
من عمري. حفظت كل حكايتها عن ظهر قلب، وعلمتني الكثير من معرفتها..
كانت أمي مصدر دهشة كل سكان الجبال!.. وأورثتني هذه القدرة على الإدهاش، فأسمونى (الكجورية).. ولا أزال أذكر قول أمي في تلك الليلة التي (وشع) فيها البرق و ادلهمت السماء:
"ستعيشين غريبة وتموتين غريبة فطوبى للغرباء.. هذه الجبال منها تخرجي وإليها تعودين لتلتقي بسلوى أختك.. تخرجك من قاع ذاكرتها، وترسمك كالطقس، وتعبئ الرسم بك، لتدخرين إلى زمن ومكان ما.."

كانت السنوات عجاف و الجفاف يضرب كل شئ، ولم تكن ثمة سنبلات تتلامسها أصابع الكف الحرشاء المتورمة في حزمة واحدة..
صدأت الفؤوس وقحلت الأرض وغطت (السفاية) كل شيء أخضر، وجمر القيزان و بردها القر أنفق البهائم و الناس وأصبح الزمن ظلمات بعضها فوق بعض كالبحر وحوت يونس، و الطريق بعد طويل.. الجميع.. كل منهم، يعتقد أنه المسافر الوحيد في الطريق الذى من نار والماضين عليه من نار والمحطات نار في نار و النهب المسلح، يتلقف من ينجو من وعثاء النار!..
"وحدها أمك يا (نينا) كانت بشراً.." قالت ثم تنهدت؛ وهي تضيف:

"كان القرار كافياً لأجد نفسي في قلب الأتون! أبوك قال: ستظلين والحراز صنوين! ترعين الغنَّم كما رعى موسى. وتأكلين من رطب مريم، وتتزوجين كما تزوجت العذراء، وتطلقين كما طلق فرعون، ويكون علياً كالخضر، يخضر كلما يمشي عليه ولا تقف بوجهة السدود، و لايموت مثل ذي القرنين!"
كل الحكايا يا أبوعلي في ذاكرتي كأنها الأمس القريب!.. مسبقاً كنت أعرفك، كان طيفك يلازمني، لا كطيف عاشق عابر، بل حبيب مقيم! تلتقيه مرَّة واحدة فحسب فتترك عينيه النافذتين أثراً على القلب والذاكرة لا ينمحي أبد الدهر!.. كنت كالملهمة أبحث عنك، وأسأل عنك.. أبحث عن هاتين العينين النافذتين.. أبحث عن الحبيب المجهول، فتعمدت التسلل من القطار، ليعبر دوني بعد أن هلك الأهل والأحباب في الجبال البعيدة، علني أجد حبيبي ها هنا!..
لكن لم تكن ذلك الحلم الذي يبقى في الذاكرة ليلهمها الحكايا الأزلية!.. هذا ما أحسسته قبل أن تفترق.. أنت الآن.. ربما بمسافات لا تقاس بالجغرافيا، تبعد عني.. ذلك البعد المستحيل.. وبرغم كل شئ أحن إليك وأشعر بأنفاسك قربي، الآن! فأنت تزفر لتملأ كل الأشياء الحميمة التي تجاورني ولا أعيشها! أحس بك! تسمعني؟! وأعلم تماماً أنك ربما اخترت خاتمتك جيداً..
هذا هو البابور يا أبوعلي وخرير الجدول.. هذا هو موسى ود جلي الذي تحتفى به يقعي كالكلب تحت قدمي! ينتظر أن امنحه بسمة، ليحس الدفء ويطرد البرد القر الذي يسوس عظامه الآن يحت عن أعصابه تعب الصحراء ورائحة الخطر الدائم!
إنه الآن يبحث بين أحضاني عن لحظة أماني مستحيلة، فأنا لست لسواك، مع ذلك، يا آخر سلالات فزارة وذبيان؟!.. انت لست لي.. شرقاً وغرباً، لايلتقان.. كثيراً ماحاولت احتواءك بعوالمي وتخديرك بحاكاياي والتسامي بك أقصى تفاصيل الشجن البرزخي البعيد، لكنك لم تكن لي.. كنت أحس ذلك في نظراتك النافذة، فحولتك القاتلة، التي تتهاوى أمامها كل الصبايا، حتى أنا!.. وسطوتك التي تقهر أمامها جحافل الترك، ينهزمون وتغوض تحتهم البحر كأنك تحمل عصا موسى!..
كان أبوعلي يحس صوت نوار يتحسسه في هذه اللحظة، كأنه يتسرب شقوق الجدار ومسام جسده الواهن.. كان يشعر بها في تنفسه.. تأوه.. تأوه... لاتزالين يا نوار تستنزفين خاطري، تشلين الرؤيا، فلاتنطلق انطلاقها الحميم!.. يجب أن تختفي، لم يتبق شئ لنفعله، لم يتبق شئ لنتعلمه، كل شئ تعلمناه:
حداء العصافير وغناء الشجر وكيف هي ابتسامات البحر وضحكته الدافئة.. البحر يا نوار.. البحر الذي بداخلنا مدَّ الأفق، لاموانئ له لا منارات لا سواحل.. مثلنا غرباء نرحل دون متكأ، شئ واحد فقط لم نبت بأمره: معنى أن تكون في التحاف الفلاحين للهجير والبرد القر ومعنى أن تكون في كل ملامح تعبرعن نفسها يا نوار..
ها أنا الآن مشرداً كبيراً، له وزنه الاجتماعى بين أبناء الأرصفة، حفظت الدروب ملامحي لم تعد تتغابى العرفة فيَّ، وأنا أحاول تضليل العسس..
الآن يأتى طيفك ينكأ في داخلي الجرح والحنين، ويتسرب بتنفسه القطيفة مسامي، يطبع ملامحي الداخلية على سريرته ولايرحل..
هذه عذابات رجل قادم من قعر الرصيف يا نوار!.. هكذا كان يقول درب معوج، لشارع مسفلت عندما تطأ أقدامي شارع الجامعة، أنني ملامح لأغنيات كبيرة حطمها الشجن يا نوار، كالفراشة المحنطة..
أقعي هاهنا مهجساً بخالد الأقرب مني إلي.. أذكر أنني كثيراً ما حدثتك عنه.. لكن أبداً لم أحدثه عنك، خالد الآن، ترك الجامعة، سافر لا يلوي على شئ!.. ظللت أخشاك بقدر ما أحبك، أنتظر التحرر من هذا الأسر اللذيذ..
الآن هو مفترق الطرق.. والطرق كلها إتجاه واحد تؤدي إلى سلوى.. الدروب ضيقه يا نوار، ممزقة وتفضي إلى المجهول وربما للخلف.. علي بالطريق يا نوار.. سلوى ولا مفر!..

إني أسمعك يا أبوعلي.. تماماً كالذي يمشي عند رئة البحر يغني شارع النيل والحزن والفجيعة، أنت ذاتك لم تتغير.. إنى اسمعك.. شارع النيل الذى كنت تحلم أن تمشي على أهدابه وأنت تراقب أضواء جزيرة توتي وهي تنعكس على صفحة الماء..
شارع النيل الذي تم شراؤه من المتحف القومى، لمستثمرين مجهولين الهوية، أموالهم المغسولة، لا تزال ملطخة بالدماء.. يريدون تنظيفها تماما على شفاه النيل يا أبوعلي، شارع النيل.. لا تستطيع أن تمشى عليه الآن مع حبيبتك سلوى خشية النظام العام.. وإن حدث يطبقون عليك حدودهم، ويقتادونك إلى السجن كحمار أجرب!.. يرمون بك في حظيرة الهوامل! هيئتك يا أبوعلي تغري حتى العناكب!

هل هي لحظة انعتاق الآن.. لا أدري! ومن منا ينعتق من الآخر؟ انا قدرك أم أنت قدري، أم هذي البلاد قدرنا معاً؟! عسيراً علينا إستيعاب الأشياء الآن في بلاد ليس لنا فيها شئ!

يخبئ أبوعلي اللوحة التي لا تفارق حقيبته الهاندباك أبداً، يخرجها.. يخبئها أسفل درج في الدولاب الجداري.. لم تفارق اللوحة حقيبته منذ زمن طويل!..
هذا المساء يحس بأنه مقبل على عالم غريب، لا حدود له، متناهي في البعد والمجاهيل! يُخرج اللوحة مرةً أخرى، يتمعنها.. يهمس في ذاته الانعتاق.. يغمض عينيه عن سحر اللوحة.. يُخرج عود ثقاب بالتحسس واللمس من العلبة الصغيرة الورقية المقواة، يخرجها من جيبه، يفتح عينيه، ويدير وجهه بعيداً عن اللوحة! يشعل عود الثقاب.. يقربه من اللوحة.. يبعده عنها، يرفعه، حتى مستوى فمه وينفث فيه دفقة من الهواء..
يُلقى اللوحة بإهمال ويتوسد يده.. يتبدى له سقف الغرفة.. غرفة الداخلية بعيداً، بعيداً.. بعيداً..

بعد أن فشل الغزو الكسوفري ووافق السلطان على تزويج كيرا من ذي الساق الواحدة ـــلم تذكر أسباب محددة في حيثيات الموافقة!ـــ في الليلة التي دخل فيها الفارس المعقور بكيرا، احترق جزء من القصر الملكي وبيوت كل أعضاء مجلسه المبنية من القش والآجر والطين اللبن، وانتفض طائر النَّار على قمة مارتجلو في رابعة النهار، وصرَّحت العرَّافة الحيزبون أن نحساً سيحل بشعب الوادي أشد كارثية من الزَّحف الكسوفري، مالم يطلق السلطان كيرا من ذي الساق الواحدة، رغم علم الحيزبون التام أن الشئ الذي ينمو في أحشاء الكيرا شارف على الخروج؟!
وتراجعت العرَّافة إثر كثير من الاغراءات السرِّية المقدمة من أطراف مجهولين فحرّفت فتواها، وساهمت في إقناع السلطان وأعضاء مجلسه أن الحرائق ناتجة عن برد الشتاء القارس الذي يجعل أعواد (الأندراب) الجافة سهلة الاحتراق، وهذا بالفعل ما كان يحدث كل عام في عز البرد، تحترق الأشجار برداً، دون أن يستطيع أحد تفسير تلك الظاهرة التي تسند لمارتجلو الذي يريد تجديد شباب الأشجار و إخصاب الأرض!

لكن لم يحدث ابداَ أن إحترقت بيوت، ومع ذلك لم تكن ثمّة أصابع إتهام لطابور خامس محتمل؟ وإزاء إصرّار العرَّافة وتأثير (الكيرا) اقتنع السلطان وأقنع أعضاء مجلسه على مضض، بأنها بشارة بحلول خصب لا ينتهي.. بشارة بميلاد (علي)!
وأعاد الفارس القادم من شمال افريقيا الكر والفر على ميادين كيرا، لهث ولهثت، تصبب العرق و تورمت العيون ولثلاثين خريفاً متتالياً أنجبا ثلاثين تؤاماً!

عندما تشتعل الحروب الأهلية، كان الأهالي يلوذون بمارتجلو.. يدخلون ردهاته الواسعة وكراكيره السرية المتعرجة، يجدون كل شئ: الكساء، الغذاء والماء ذي النكهة البرية الرائعة، لا أحد يسأل من أين تجئ هذه الأشياء، في ذلك الوقت لم تكن (كيرا) قد تزوجت بعد من ذلك الفارس المعقور، ولم تبتدع مفرده (كنجار، تنجار) لتعبر عن الذي يتكلم العربية ولا يعرَّف لغة الفور، فذلك الفارس لم يكن قد أتى بعد، ولم تكن عبارة (صَلَّنْدُّونْ كَوَىْ) أيضاً قد شاعت!..

"اعترف.."
"بماذا اعترف؟!"
"من هي نوار؟"
"أُنثى خلاسية التقيتها حدا البابور وتوحدنا في كيان الحراز!"
"ماذا تقصد؟ اعترف!"
"بماذا اعترف!.. بأنني لم أكن ضمن كتيبة (يونس الدكيم) التى قامت بتركيع عساكر أبو كلام؟! أم اعترف بالعكس! عفواً سيدى الجنرال.. الشعوب سيدة مواقفها وكل ما في الأمر أنني جزء من الحراز ونوار جزء مني.. فهل هذا ينافي القانون في شئ؟!"
"اعترف أحسن لك؟!"
"لم أشهد إغتيال يونس الدكيم للفكى عرقوب!.. ولم أكن شاهداً على سبي النساء وأسر أفراد القبيلة.. لم أكن شيئاً من ذلك ولا تعنيني قط أطماع اسماعيل ود مريمى زعيم دار محارب في أراضيي الأحامدة. ماذا تريدون مني، فليس لدي سيف كي تهدوه لمارغريت تاتشر، ولا أعرف محتويات المتحف الوطني!"
وتوالى لسع السياط على ظهر أبوعلي، ولم يكن ثمة شئ غير الصمود والانصهار في الكبرياء!

برغم أن العرَّافة ومجلس السلطان قد بذلا جهوداً مقدرة في تهدئة خاطر شعب الوادي اثر تلك الحادثة، ليلة الدخول على كيرا، إلا أن شعب الوادي أخذ ينظر بتوحش للكيرا ونسلها الذي يتكاثر بشكل مخيف!
وبعد مضي كل هذا الزمن أخذوا يرون في نينا من خلال أحاسيسهم الغامضة، الناتجة عن ركامات الماضي السحيق، ملامحاً لشئ ما بقى في الذاكرة ولا يدري أحد كنهه بالضبط!..

الزنزانة، ضيقة، باهتة.. تخترق الباب الصاج أصوات ضئيلة، كابية كالضوء المرتسم كأنشوطة عند فتحة السقف اليتيمة.. ذات الأصوات المسحوبة منذ أعتقلت تفيض، تنحسر وتتلاشى مع بقايا همهمات الجندى النبطشي.. تصطدم بتأوهات مهزوزة، مبعثرة..
رأسي المسكون بنَوَّآرْ يصرخ كعجلات قطار على سكك حديدية تمتد في خفقات القلب:
نَوَّآرْ.. نَوَّآرْ.. نَوَّآرْ..
بدى لي رأسى صغيراً في هذا الهدوء القاتم الممتد أقصى شرايين المكان، محتوياً كل شئ!.. ذات اللحظة، ربما.. التي عاشها الحلاج، قبل أن يدنو منه النطع والسيف:
"الحلاج ذاك، كان رجل يا نَوَّآرْ.. أعني ياسلوى!"
"لماذا.. الأنه عمَّم الخاص!"
"لا، بل لأنه كان مسكوناً بالمجتمع.. أنه صاحب تصور للعالم والنَّاس والأشياء!"
"الجميع كان لديه تصوره!"
"لكنهم ليسوا مثله.. لم يخرجوا من أبراجهم العاجية ليلامسوا أحزاننا، إلا هو"
"هل تحبه مثلما أحبته نوار؟!"
"بل أحب تلك اللحظة. لحظة الارتباك تلك التي حاصر بها قضاته.. لازلت أضحك عليهم مثلما ضحك الحلاج على أبوبكر الحمادي و إبن سريج.."
وضحكت.. ضحكت، حتى انزوت جدران الزنزانة على نفسها! ثم انتبهت لنفسي فانزويت أنا الآخر في ركن قصي، أحاول الانغلاق بعيداً عن رائحة العطن والفضلات. وتخيلت أنني لا أشم شيئاً!..
حاولت أن اغمض عيني، نفضت عيني، نفضت بيدي فجأة عند إحساسي بشئ بارد يتسلق عنقي!.. الجرذان المتراكمة في هذه العتمة وحركات الخفافيش المباغتة تبعثان في نفسي الإحساس بالغثيان الذي لا حدود له!
حركةّ باب الزنزانة والحوار المتقطع في الخارج يتقاطان على سمعي..
"هل سأنام هنا؟"
"لا، سنحجز لك فى الهيلتون! ادخل الزنزانة يا ابن الكلب! والله عجايب آخر زمن!"
". ...."
"من؟!"
"..... ...."
تعالى صوت الكرباج وملأ الأنين والتأوه فضاء المكان! ارتفع صوت خطوات فرد الأمن النبطشي، وهي تبتعد، وهو يطنطن لاعناً الدين والمعتقلين والسلطه والمكان!.. ثم أخذ وقع خطواته ينخفض تدريجياً إلى أن تلاشى مخلفاً وراءه الصراخ اليائس!.. أرخص شئ في هذه البلاد هو الإنسان!.. لايساوى شيئاً مطلقاً!.. بصقت بقرف!..

الزنزانة تبدو موحشة، سمجة و باردة، تافهة.. تمر بي الصور شريط من الأحزان، أمي، أختي، خالد، الأصدقاء، الكارو.. وما أشبه الليلة بالبارحة!.. هكذا الحال منذ زمن موغل فى البعد.. قالت نوار:
"لنتزوج!"
ولم يكن ثمَّة شاهد سوى الله، ترى كم هي المعاناة التي سببتها لأسرتي؟ وهل ستكون شقيقتي حكيمة وتخفي عنهم خبر اعتقالي! فتسكت على الحزن!..
تطفو على الذاكرة أمي بوجهها المتعب المكدود، وشفاهها المتشققة كالأرض القردود، تمتد على المساحات وتدور وابقى في ذات النقطة التي انطلقت منها.. ليس ثمة فرز لأضاءات تتحقق.. الأشياء تتبعثر فاتششت فيها.. أشجاني المجبرة على الانتظار قهرا، اللامبالاة، النهايات القصوى للقسر، عفوا لا قيمة للوقت هنا، حيث احتراف الفراغ، والترقب!.. الليل.. النهار فالمساء، الصباح، الظهر والعصر! وكل شيْ لاقيمة له في هذه العتمَّة الدائمَة.
من ينتظر حبيبته، ليس كمن ينتظر فجراً لايطل! في هذا الظلام المستمر يشتاق الإنسان لأي كائن يحادثه ويغني معه الأغنيات الصامته للصمت!.. أن تغني لا تموت، هو الحب مقاومة للرصاص والدم والدموع!..
أحاطت بوجهي عشبات أكثر كثافة من ذي قبل، وأكثر شعثاً، عناء الرحيل الدائم إلى زمان الضوء.. ازدادت قامتي طولاً وجسمي نحولاً والتروبادور لايزالون يغنون الدوبيت في الريف البعيد، مع الكوليرا والإسهال! فيما صوت مغني صايع يردد: كدة كدة يا الترلة، قاطرا قندراني!.. عسى أن يطحن تحت عجلات ذاك القندران!
صارت العينان ضيقتان تماماً، مزرورتين كالمصوبتين إلى رماد.. غائرتين على بؤبؤيهما..
ويجئ الليل ممتزجاً بنباح الكلاب. تزداد كثافة الظلام ويزداد الطرق على باب الزنزانة، وتأتي الأصوات الغليظة، الفاجعة، المهددة:
"خير لك أن تعترف؟"
"بماذا؟ أنا برئ من دم محمود محمد طه، أنا لم أكن ضمن الجهادية السود بكسلا، ولم أخنهم، لم أقدمهم لقمة سائغة للانجليز لقاء المزيدا من الاقطاعيات والتسهيلات وسواقي البصل. أنا عبد فقير يحق له التعامل مع ديوان الزكاة.. نصيبي في هذه المليون ميل الشاسعة ثمانون ميلاً مربعاً فقط.. تماماً!.. هل أحسبها لكم عدد السكان على المساحة.. أم.. ومع ذلك لا تملك أسرتي حتى منزلاً بالإيجار! ماذا تريدون مني؟!"
"اعترف أحسن لك؟"
"هل اعترف بأنني لم أسرق ولا شبرا واحدا من الأرض!.. أم بأنني أقاتل لأجل ثمانون كيلومتراً مربعاً فقط، أم بماذا أعترف؟!"
"اعترف.."
"حسنا لقد تعبت.. توقفوا عن ضربي أيها الجرزان، سأعترف، أنا المسؤل عن فصل الوطن عن الدولة، والمسؤل عن القتل والتعذيب والاغتصاب والفساد، والتلاعب بالدين.. يا سادتي أنا أهم وأخطر وأكبر تاجر دين عبر على التاريخ في كل العصور، ألا يكفيكم هذا الاعتراف؟!"
"أتريد أن تلعب يا إبن الكلب، سنريك كيف يكون اللعب!"
"لا، لا.. أرجوكم توقفوا عن ضربي، سأعترف: أنها نَوَّارْ!"
"مابها.. من هي..ها، أين تختبئ، قــل.."
"أنها نَورْ عيني، حبيبتي، مأساتي في هذا الوجود المتعفن!.. ربما.."
كرباج.. وألم وتأوه!..
"اعترف يا إبن الكلب!.."
"أنا لم أتاجر بعقائد الناس، ولا أحلامهم! لم أزني بنسائهم، وبقضاياهم.. أو أغتصب أطفالهم.. فقط أحب نَوَّارْ كما أحب (المحلق تاجوج)، أنتم تدفعونني للجنون!"

"اعترف ياسليل العاهرات، يا ابن الكلبة.. اعترف أيها العبد الذليل.."
الاستلذاذ بالتعذيب يطل من عيونهم الشرسة التي يتجلى عليها مركب النقص والعقد النفسية والهزيمة!..
"سنأخذك إلى (العمارة) وهناك لن ترى الضوء أبداً، ولن تتعرف على نفسك.."
"أنتم مرضى!.."
"ماذا تقول يا إبن الزانية! سترى الآن!"

مزيداً من الصبر والسلوان يا إله.. مزيداً من الحزن والصمود.. التهديدات ذاتها، لا تتغير أبداً في محتواها أو شكلها.. ذات الكلام الذي قالوه (لآدم بك العريفي)، ذات الكلام.. والزمن ثابت لا يتغير، لا يتقدم.. منذ عصر الانحطاط وذاكرة المماليك ترهن تطلعاتنا.. لم يسلم منهم خلق الله حتى في (سنار القديمة) و(المغرَّة وعلوَّة والنوبات!).. لم يعوا الدرس من تآمر الوزراء الهمج على سنار!..
ربما.. لن ترى الضوء أبداً .. لم يرى الضوء أحد منذ قتل قابيل أخاه، منذها نحلم وما أشبه الليلة بالبارحة!.. ولا أزال أحلم وسأظل أحلم، بعصفور من خلال سيخ كوَّة الزنزانة، يخترق شرفة الحلم، يحلق في فضائه، يمارس التحليق مبتعداً عن الزنزانة!..
عصفور يخرج من القلب ويرحل بعيداً في الوريد، هناك في مركز الشمس! عشمي، بعد، لمحة ضوء (زوال)، (ضل ضحى).. أو امتداد الظل برغم أنف قوانين الطبيعة وعلماء الفلك، برغم أنف (مستر ريد) و(سلاطين باشا) وكل ترزية التاريخ المؤرخين!.. والمتآمرين والطبالين وحاشية الأمير والوزراء الهمج!..
"سنقتلك.. اعترف.. ألا تحرص على حياتك؟!.."
"حياتي؟!.. وأين هي حياتي؟!.. أتسمي الحياة في هذا الوطن الفضيحة حياة؟!"
حياتي يا سيدي حكاية طويلة، ومؤلمة.. آه.. حقا مؤلمة، حياتي هى إطفاء أعقاب السجاير على جسدي، هي صعقات الكهرباء.. آه.. كيف عذبتم دكتور حمودة: خصيتموه.. كيف قتلتم دكتور علي فضل: مسمار صديء في الرأس، كيف قتلتم التاية وطارق و.. النار تلسع جسدي، لكن التعذيب الحقيقي هو أن تتقاعد عن شم النسيم، أن يستقيل العقل والوجدان، أن تتقاعد عن الحب والغناء ونَوَّآرْ..
الشوارع المترفة بالمعاناة والمسأله أكبر.. هي الانفصال عن دائرة التاريخ، عن محيط دائرة التاريخ والعوده إليها!.. تلك هي المسأله، أن نكون في زمننا الحقيقى أو لا نكون! أن نسمع ما نرغب في سماعه، أن نأكل ما نشتهي، ونشم الرائحة التي تعجبنا، ولا يفرض علينا التلفزيون سخافاته؟! أن نعبد الله كما نعرفه، لا كما يراد لنا أن نعرفه!
البابور.. شجرة الحراز.. الرابية.. الشارع الممتد بضوءه القرمزي في نهايات الدرب كإشارات المرور، الأغاني الثورية، المتخمة برائحة البارود وطعم المقاصل!..
ترى كم من الزَّمن مكثت هنا في معتقلات الأمن؟! يوماً أم بعض يوم!.. حتماً سيقولون، اثنين، أنا ونَوَّآرْ وثالثنا الحزن المقيم أو خمسة، ستة بالبرد والريح ونباح الكلاب والكرباج.. الكرباج هو العلم الرَّسمى لدولة الغابة والصحراء!..
يكفي الانغلاق بعيداً عن الحزن، دون فلسفة له!.. يكفي الإحساس به لنتعذب طويلاً، لا حاجة لرؤيته مطلقاً!.. اللغة مهزومة في هذا المكان الصامت، الصامت.. تتداعى الأشياء، تنغمس في قطعة الخبز الملقاة على البلاط المتهرئ لتبل الريق بالأغنية الوحيدة التي لها معنى!
هذا الريق اليابس، تبله هذه القطعه الصغيرة الملقاة، أغنية الكاوبوي، أغنية السيد الكبير، أغنية مولانا والامام والشيخ، أغنية الكوَّة، البلاط، الجدران، الجرزان، النَّمل والبعوض والجندى النبطشي!..

أعقاب السجاير وأغنيات كثيرة لا حصر لها ولا معنى إلا عندما ترتبط ببعضها.. معنى واحد فقط يظل ماثل ابداً وهي منفردة: القهر!..
أغنيات مهزومة أبداً ميتة، عدا قطعة الخبز الجافة!.. هذه الكف بخطوطها العريضة، المعروقة، كجذور شجرة نيم معمرة، عفى عليها الزمن فاض بها الشجن واضناها الحنين، انكفأت على نفسها بقسوة!..
جميعهم ينتظرون العائد من الضباب، بتشوقات مجروحة اصدأها الحنين.. تتحول نفسي إلى كتلة من الحزن الكلي الشامل.. اتمزق بين قرصات النمل والحشرات ولسعات الهوام الضالة والعزلة!..
الهموم التى تركتها خلفي تأكلني.. اتشرد بين الأمل وكثافة الحلم المستحيل واللغة القاصرة، المهزومة ونباح الكلاب، اتشرد بين مدارات الوحشة ونداء الدواخل لقطع الطريق أمام كل أمل مخضوضر هُوِّيَة تحمل اسم نَوَّآرْ..
"سلوى تسأل عنك يا ابو على!.."
"ومن تكون سلوى؟!"
"قريبة نهى"
"لا اعرفها!"..
على أرض الزنزانة القذرة تناثرت أشياء، بدت له ثمينة وقيمة، نادرة: قطعة كرتون عتيقه فرشت على البلاط ذي النتوءات والتجاعيد، مجلة بتاريخ قديم تركها معتقل سابق وكتب عليها:
(أذكرونى)..
أكيد كان يمزح، لم يكن جادا!.. من يذكرك هنا يا صديقي؟! أنت تعبث ولا شك!.. إبريق قديم للشرب وقضاء الحاجة! خلعت البنطال المتشقق كالأرض الزراعية القردود، والقميص المهترئ.. جففت العرق.. لملمت أطراف ثيابي القديمه على جسمى مرة أخرى لاحتمى من سرب البعوض.. طرقت باب الزنزانة عالياً، أكثر من المعتاد.. فتح.. أطل وجه كريه!..
"الطعام"
كنت متشوقاً لرؤية أي وجه من الوجوه البشرية عدا هذه الوجوه الكريهة، تحسست قطعة الخبز اليتيمة، وجدتها محشوة بالملح و العطرون، حاولت تنظيفها، يئست فقذفتها ولعنت كل شئ، قرصني الجوع فتأسفت على رميها. هنا يشتهي الإنسان أتفه الطعام!..
فتح باب الزنزانة بقسوة واطل ذات الوجه الكريه:
"لماذا لم تأكل؟"
"لا أستطيع هضم الملح والعطرون.. إهترأت إمعائي يا رجل!"
قلت بلهجة لاذعة فرد بحنق:
"هذا إعتصام! همم.. أنت مضرب عن الطعام إذن، مم.. ستأكل عندما تجوع!"
أغلق الباب خلفه بشدة وأبتعدت خطواته القاسية.. أمسكت بنواجذ الزنزانة النازية، وكتلة من القرف الثقيل تستقر بأعماقي التي أوهنها الملح والعطرون، ترهقني كثافة الليل، أنفاسه الرمادية، الخُنثى!.. تبعث على المرارة والأسى! مرة أخرى طُرق باب الزنزانة بصورة مفاجئة ومتقطعة دون أن يُفتح الباب! استمر الطرق.. إذن هو شكل آخر للتعذيب؟!
في المرات الأولى كنت أنتفض متوجعاً، وطبلتي أذني تكادان تثقبان.. كنت كفرخ طائر ذبيح بلله المطر! لكن لم تعد هذه المشاعر تستثار في الآن!
الآن أحس فقط بشعور ما، شعور مائي، لا لون ولا طعم ولا رائحة له! شعور يجمع عواطفي كلها ويصبها في قوالب من الأغنيات ذات اللغات المكبوتة إلى درجة الجفاف.. خلايا مخي وأوداجي المزرقة المنتفخة تهترئ لحرمانها الراحة في أيام السهر الطويل.. تعانى إهتزاز الرؤى و الرؤيا!.. احساس مفعم بالنهوض، يجعلني أشعر

بأنني فقدت أشياء عزيزة عليَّ، لاأدري لماذا يهاجمني هذا الإحساس، كلما ذكرت نَوَّارْ! فيتمدد بداخلي مالئاً كل الفراغات!..
الأشياء أمامي تصير أجسام بلا عناوين، تفقد صفاتها، مميزاتها أفعالها، ردود.. تُرى أيكون افتقادي للحرية هو الباعث لهذا الإحساس؟!.. أم هى لحظة المواجهة؟!.. مواجهة الذات التي تفرجت على الحياة ولم تعشها كما ينبغي!
الأحاسيس المتضاربة تبدو عميقة حين يفتقد الإنسان الإحساس بالكيانات التي حوله: حيث لا تمثل سوى ذوات جامدة لا حياة فيها.. قلت لنَوَّارْ مرة:
"لماذا أنا بالذات؟!"
فردت بحنو:
"لماذا لست أنت بالذات؟!"
ثم كأنها تستفيق:
"ربما لأن عينيك لا قرار لهما.. وربما لأنني أحب الأطفال.. لا لأنهم أطفال.. ولكن لمعنى الطفولة ذاته.. الطفولة المحض!"
أرتقي إلى الفراغ أم الفراغ يرتقي إليّ.. آه، هو الرَّفض إذن، لايموت كالآيديولوجيا، بكل عسفها!.. أنه المستقبل الذي تحياه الآن، الأمل بريق محفوف بالمخاطر، لكنه قد يكسر طوق العزلة والعتمَّة والحصار عند إنفجار القمقم!..
إستضافوا شخصاً جديداً، إمتلأت كل الزنازين عن آخرها.. لم يجدو لسيادة المعقتل الجديد مكاناً ملائماً لاستضافته كما يبدو! فقرروا إستضافته في زنزانتي الفاخرة، حتى دون أن يهتموا لرأيي!.. رأيي؟!..
لم تسعني الفرحة بالطبع! والقدر يهيئ لي فرصة سماع صوت بشري حقيقي مرةً واحدة هكذا!..
تسلل صوته الرقيق من بين أسداف الظلام:
"السلام عليكم"..
أحسست بأنني لم أسمع صوتاً أليفاً منذ ولدت كدت أنسى اللغة نفسها، كنت مشتاقاً لتجاذب أطراف الحديث مع أي كائن كان.. سألته عن الناس بالخارج عن اليوم والشهر والسنة.. وهل لا تزال الأرض تدور؟!..
وجهه النحيل الأسمر يحمل خطوط حزن عميقة.. هم كثيف يغطي خطوط أخاديده الغائرة، حاولت أن أكرمه بالتخفيف عنه، سألته بصوت حاولت أن أجعله ودوداً، حانياً:
"لماذا أتوا بك؟!"
فرد بأسى:
"وجدوا عندي رطل لبن!"
"وهل أصبحت هذه جريمة؟!"
"كانوا قد منعوا شرب اللبن لأنهم بحاجة لتصديره مجففاً، أصبح اللبن لا يوجد إلا مهرباً طفلتي الصغيرة (مفطومة) ولم يكن أمامي سوى المخاطرة حتى لاتموت الطفلة!"
.. همم.. م م م.. يهتمون الآن بأمر اللبن والأغذية المصرية الملوثة بالاشعاع والمزروعة بمياه الصرف الصحي، تتسرب عن طريق حلايب المحتلة.. التهريب عن طريق حلايب يملأ الشوارع.. الناس تموت بسببها والأطباء الفاشلون يسجلون الحالات كمرض مجهول.. أين تجد وطنك يا أبوعلي مختبئاً في هذه الزنزانة الضيقة، أين تجد وطنك مختبئاً في هذه الساعة الفاجعة؟.. وطنك أضيق من الزنزانة!
"من أين أنت؟!"
"من كل مكان!"
"لا أفهم!"
"ولا أنا!"

"هو كذلك، إذن ماذا فعلت؟!"
"لاشئ"
دعك أنفه بطريقة مقززة:
"ماهذه الرائحة؟ هل تقضى حاجتك هنا؟!"
"الحمد لله لن أكون وحدي من يفعل ذلك بعد تشريفك"
"ما الذي تعنيه؟!"
"إنس هذا الامر الآن، فهو سابق لأوانه.. ستعتاد! .. لاتهتم، الجميع يرفض في البداية لكن بعد ذلك يستسلم للأمر الواقع"
كنت أود لو أزيل عنه هذا الإحساس المشبع باليأس والحزن والألم لكنني أحسست به منصرفاً، كان يعيش داخل نفسه، راغباً عن أي حديث، تركته لتوحده وتوغلت بعيداً في نظراته الشاردة، أحسست أن عليها خيولاً تركض في محطات محدودبة الهواء والضوء.. وحدهما يستقيمان ظهورنا تقاوم الانحناء!.. تختفي كل الخيالات حتى النائية منها تتضائل مع نباح الكلاب ويذوب كل شئ في الفراغ مع لهاثها..
كان الطرق المسرف على الباب يتواصل، تنزف دواخلي المأسورة.. الشعور الحقيقي لانسان أُعتقل زمن ما من داخله!
حانت مني التفاتة في الظلام، فاصطدم بصري بجسم ممدود على انزواء الركن ظهره للأرض وساقيه على زاوية الجدار لأعلا في وضع غريب، يشبه الوطواط عندما ينام!
هاجمني شئ من توقعات حزينة.. استمديتها من إحساسي بالذين في الخارج..
تذكرت فجأة أن الجسم المنزوي هو للسجين الذي ضبطت بحوزته (حلة اللبن) زفرت بشئ من الارتياح.. أمعنت النظر في الجسم المتكور، تخليته لا منزوياً على الجدار، بل على حزنه وخيبته من الآخرين الذين صمتوا حين رأوه يُقاد كالكلب إلى هنا!
الأخرين الذين كانوا يراقبون إغتيالات الطلاب وهي تتم لأجل وطن يحلمون به يتناثرون كالشظايا وتملأ دمائهم شوارع الخرطوم! والطفولة تدهس تحت سمعهم وبصرهم! (الآخرون هم الجحيم!).. لايزالون صامتين كالموتى لايجيدون سوى التنظير في المواصلات العامة وقعدات السكر والانحناء للريح!
هنا تتبتدى العلاقات بين السجناء فائضة بالإحساس الأخوي والمشاركة في الفجيعة، تقتسم معهم كل شئ.. حتى أحلامك وأحزانك بل وتقاسمهم التغوط والتبول في الإناء نفسه!.. نعم تقتسم معهم حتى المكان!
لا يزال المعتقل متمسكاً بعوالم تخصه وحده.. متكوراً عليها، لايريد أقتسام شئ مع السجناء!.. فتح باب الزنزانة عند منتصف الليل تماماً كما قدرت، وأتى صوت ذو نبرات غليظة، أجشة:
"حيدر"
إنتفض السجين في ركنه المنزوي بغتة كمن لدغه ثعبان سام..عندما أقترب مني أحسست به يزيح عن صدره كل أحزان وهموم العالم ويضعها على ظهري بكل أثقالها!.. ربت على كتفي ومضى!

"لنتزوج"
قالت نوار.. فاكتشفت فحولتي لأول مرَّة!..
كنت أحيا الحياة في تلك اللحظة، كما هي حقا الحياة!

انبثق عن سقف الزنزانة بشكل مفاجئ وجه نَوَّآرْ.. ذات الوجه الطفولي لامرأة ناضجة! كان السقف قد انفرج عن مصراعين وسبحت نَوَّآرْ في الفراغ.. لم تتفوه ببنت شفه عدا:
"الطريق أطول مما يتصور حفيد موسى ود جلي بكثير!" وارتفعت بي خارج الزنزانة، التي عاد سقفها إلى مكانه.. وضعتني على الأرض وتلاشت في الهواء..
عندما استوعبت ذهولي ودهشتى انتبهت إلى أنني لم أُغادر مبان زنازين العسس ومكاتبهم وغرف تعذيبهم ومقابرهم الخاصة بعد!.. كنت لازلت في جغرافيتهم..
دهشتي وذهولي لم يجعلاني أسمع سوى كلمات نَوَّآرْ الآخيرة:
"سلوى"
بدت ذاكرتي كخلية من النَّحل وجبيني يتقطر عنه العَرَق ونَوَّآرْ تغيب في اللانهاية كطائر مارتجلو..
لم تكن مبان العسس هي ذاتها تلك التي اقتادوني إليها أول مرَّة!.. فوجئت بمدينه ممتدة تحتوي على الزنازين والمكاتب وبيوت الأشباح ومساكن العسس وعائلاتهم!
كان كل شئ يشير إلى أنني في مدينة كاملة للعسس بكل مؤامراته وزيفه وصلفه ومكائده.. مدينة بأزقتها و حواريها فقرائها وأثريائها، كازينوهاتها ومعابدها!.. أنديتها.. كانت مدينة بكاملها.. شيئ واحد فقط بقى! كما هو: شجرَّة الحرَّاز ـــشجرَّة الحرَّاز هذه أصلاً كانت شجرة (نِّيْمْ).. أول شجرَّة نِّيْمْ أدخلها الانجليز.. زرعوها فتحوَّلَت إلى شجرَّة حرَّاز ـــ تلك كانت رواية السجان.. فهل كانت هذه المدينة موجودة قبل اعتقالي!..
كل الأشياء تبدو مألوفة، حتى الشجرَّة، رغم أنني أراها للمرَّة الأولىٰ!.. كان المكان رهيباً والدواخل يمشى عليها النَّمل!.. غابت الشمس.. هذه الشمس التي لم أراها منذ زمن ما طويل.. أراها الآن!.. كان واضحاً أن الفصل خريفاً، إذ اقتحمت أنفي (دعاشة) لذيذة، باردة!
أخذت السماء تبرُق وغيومها تتكاثف.. قلت في نفسي ستمطر بعد قليل، وفكرت كيف يلتقيني الأهل والأحباب بعد كل هذا الغياب.. سألتقى الليلة أهلي!..
إنتبهت على نباح كلب مزعور، يطارده أطفال عسس، شيعت شجرَّة الحرَّاز بملامحها الحادة، بنظرة آخيرة وأبتعدت للخروج من مدينة العسس..
نساء من العسس، أطفال من العسس، صبية ورنيش من العسس، مثليين من العسس!.. (مدينة العسس).. هذه المدينة التي خرجت من قلب التاريخ، كل شئ فيها من العسس!.. حتى المبان تتخذ شكل العسس ولابد أن كل من يلتقيني سيعتقد أنني من العسس!.. فالفرق بين العسس وغير العسس هنا، فقط فى من بداخل الزنازين ومن خارجها! فرق مكان فحسب! لا فرق آخر البتة!..
دخلت زقاقاً ملتوياً فإذا بالكلب العساس ينزلق من أحشائه المتشابكة الأطراف. ركضت أمامه والمسافة التي تفصلني عنه تتضائل، أخذت أزيد من سرعتي حتى واجهنى نفق في نهاية الدرب، تدليت منه سريعاً، لم أشعر بدرجاته وأنا أتجاوزها في سرعتي حتى واجهني نفق آخر في نهاية المسافة، تدليت منه سريعاً، لم أشعر بدرجاته وأنا أتجاوزها في سرعة..
التصقت بحائط متدني في نهاية النفق، الذي تبدى عن مساحة واسعة.. كنت مملوءاً بالحنق متشوقاً لأهلي وسلوى والأحباب.. أحسست بالكلب ينفلت كالسهم خلفي، متجاوزاً كل الدرجات! سكنت حركتي لبرهه، مترقباً المجهول بتوفز. دهشت حين أرتد الكلب راجعاً، إلى حيث أقف، حدَّق فىَّ بلا مبالاة ثم واصل ركضه إلى حيث أتخذ مكانه على دكة خشبية متكئة على الجدار.. تراصت قربها دكك خشبية متشابهة تماماً!

ثمة أشياء عديدة، لبرهه لم أتبين ملامحها، ثم اكتشفتها بعد ذلك.. كانت أرضية النفق تبدو متبعجة، ذات لون بني داكن مشرشراً ببقع وَرْسِيَّة، أكثر غموضاً!
ثمة صوّر مشوّهة على الجدران للمسيح وهو يقف بانكسار أمام مئذنة مسجد تهدم برجها فتساقطت أجزائه على الأرض المتبعجة!
بل تتوسطها تماماً مائدة صفراء، متهالكة! ورغماً ذلك تناثرت عليها تماثيل تاريخية لوجوه آسيوية وافريقية وعربية وأوربية وأخرى خلاسية ضاربة في افتقاد الهُويَة، ثمّة مخطوطة حائلة اللّون مهترئة على الجدار، أقتربت منها، تبينت فيها خطاب (نهرو فى باندونج) لفت نظري وجه سامي! بدت عليه ملامح الثقة بالنفس في وضوح!
ثمّة أشياء تبدو غريبة، لم أرها من قبل.. القبو بفضائه المزحوم برائحة البُهَار الأفريقي والطلح السوداني والعنبر الهندي.. تبدو عليه التماثيل ممسوخة المعالم متجردة من كل الملامح.. كان المكان أشبه بمعبد وثني.. أضيفت إليه تفاصيل كثيرة من كل الديانات!..
نبتت علاقه مبهمة و كثيفة بين أبوعلي وتمثال يجسد المسيح مصلوباً أمام نار مشتعلة يلتف حولها أربعين رأس بشري ملتحي باللحية نفسها، دون أجساد.. غمرَّت الدماء المتجمدة ما تبقى من أعناقهم المقطوعة..
كانت عيونهم مفقؤة وأنوفهم مجدوعة وأذونهم مقصوفة فبدى واضحا أنهم تعرضوا للتعذيب وتشويه الأعضاء، قبل أن يُقتلوا!.. ترى هل تحققت نبؤة محمود محمد طه، فاقتتلوا فيما بينهم؟!.. بدى لي كل شيء غامضا! لا أستطيع له فهما!
حاولت أن افك علاقتي المعقدة بتمثال المسيح!.. وتساءلت: ترى كيف هي الأمور خارج هذا النفق..
هزيم الرعد يعطي الإحساس بأن امطاراً غزيرة بدأت في الهطول.. كنت قد تحولت إلى مخرج آخر في أقصى النفق عصفور صغير يبدو مشرباً بالتعب، يرتعش من البرد مقعياً ككلب وهو ينتفض.. رفعته من تحت قدمي، دعكت يدي ليسخنا.. أدفأته وأدخلته في جيبي.
كانت الأدراج بعضها مخلوع وبعضها مكسور.. أدراج قليلة هي المثبتة على مخرج القبو.. هذا المخرج الوحيد المدرج، الذى يؤدي إلى الأرضية المتبعجة للقبو.. ما دونه من مخارج بلا درج!.. حاولت أن أرتقيها. لم أستطع، كنت أسير ببطء وحذر، كاتماً أنفاسي قدر الإمكان..
الدكك المتناثرة على أرضية القبو امتلأت فجأة بأنواع مختلفة من الحيوانات غير الأليفة، يتوسطها الكلب العساس! لم أكن خائفاً، لكن كان المكان رهيباً! كنت أحاول الصعود لأعلا وبعد كل درج اتمكن من تجاوزه انتفس الصعداء..
بدأت المياه تغمر المكان، تسيل عبر فجوات القبو؛ وبدأ على الحيوانات الذُعر!..
لابد أنها ستمطر بشدة.. تزايد منسوب المياه شيئاً فشيئاً، حتى خاصرة القبو، ولا زلت اتقدم بحذر.. كان الشوق إلى الجميع يملأ أعماقي، ويستحث فيّ الاسراع..
المياه.. صرت ألمسها في ركبتي وأصوات الحيوانات المذعورة تأتي واهنة!..
أخيراً، بلغت فتحة القبو! اطللت برأسي وزفرت بإرتياح! كانت المدينة غارقة في الأسى، والأرض تفيض.. والسماء تمطر.. والأبنية تتبول وتحيض!.. كل شيء كان يسيل! وقفت مرتعشاً عند إحدى الزوايا؛ و أنا احتمي من المطر الذي بدأ يتوقف الآن!
ارتعاشات في الهواء الطلق، يتولد عنها رزاز.. توقف المطر.. أحس العصفور الذي في جيبي بطقس هذه المدينة!..
توقفت الامطار فجأة تماماً!.. وبدى الجو صحواً. كانت الشمس قد أشرقت جميله وزاهية في أشعتها الحانية..
اخرجت العصفور من جيبي، أدفأته قليلاً ثم أطلقته بإتجاه الشمس! أخذ العصفور كلما ارتفع محلقا يزيد جسمه الضئيل، حتى ضخم إلى طائر مارتجلو الضخم، فعاد محلقا حول رأسي يظللني بجناحيه كالغمام، دار دورة آخيرة حولي، ثم أفرد جناحيه محلقا باتجاه الشمس!

لقد إنتحر خالد!"
دارت الدنيا برأسي، تحول كل شيء أمامي إلى دوائر وهالات ملونة، شعرت بكل الدم الذي في شراييني يتجمع في دماغي دفعة واحدة، فيبدو ثقيلاً.. يختل توازن جسمي خائر القوى فاتداعى مستندا إلى الجدران..
"كيف حدث ذلك؟!.. كيف؟!"
"أنها قصة طويلة، قل لي كيف أنت الآن؟!.. عسى أن تكون قد جددت دمائك في هذه العطلة القسرية؟!"
"فعلاً كنت بحاجة للقليل من الراحة! أردت أن انفض عن نفسي آثار الاعتقال!.. أخبرني لماذا انتحر خالد؟ ولماذا لم تخبروني إلا الآن؟!"
"هوِّن على نفسك يا أبوعلي.. نحن نعلم أنه كان الاقرب إليك"
"لماذا اختار خاتمته على هذا النحو؟! لماذا؟"
"أنها مسألة إرتباك.. لحظة يأس في مواجهة الخيارات الصعبة"
"آه ياخالد.. لماذا..؟!.. لماذا ؟!"
"منذ عدة أشهر ومنظمات حقوق الإنسان ليس لها حديث سوى حق الحياة وإطلاق سراح المعتقلين، توقعنا إطلاق سراحك في الفوج الأول.. لكنك تأخرت إلى الفوج الثالث، اليوم أُطلق الفوج الخامس لتأكيد حسن النوايا"
"لكنني لم أُطلق ضمن فوج!"
"ماذا بك يا أبوعلي؟!"
"آه عبدالله، لم أعد احتمل شيئاً، دعني وحدي الآن رجاء"
كانوا قد أنهوا إليه خبر إنتحار خالد كأنه خبر عادي!..
لم يكن ثمَّة ألم مجامل على الأقل يلوح على أعينهم ولم يكن ثمة أحد يود أن يعترف أن استقالة حسام وتمردات سلمى ومحمود و كثيرون غيرهم وانتحار الفتى القزحي هو موقف واحد بتجليات مختلفه متعددة ومتباينة!..
تسرب أبوعلي من شقوق الجدران معتكفاً على حزنه وحده كأبي ذر، كانت لوحة نَوَّارْ لاتزال ملقاة على الدرج الحجري حيث تركها آخر مرَّة.. لم يحركها أحد من مكانها في غرفة الداخلية، نظر إلى السرير الـ مزدوج، كان فارغاً من خالد، أحس بغصة في حلقه..
خالياً السرير إلا من الوحشة والوحدة والألم.. مزّق اللَّوحة إلى قطع صغيرة وأشعل فيها النَّار.. كان قد أُغمى عليه!

أُمسيتئذ، بعد أن أخبروه بانتحار خالد الفتى القزحي، إختفى ولم يره أحد! وفي الأيام التي تلت اختفاءه زعم بعضهم أنهم شاهدوه فى تمام الساعة السابعة مساء الخميس، جالساً على الكرسي الخامس من اليمين في لوج سينما النيل الأزرق!.. لكن آخرين أصروا على أنهم شاهدوه والعسس يعتقلونه مرَّة أخرى!
أحد أصدقائه الكثيرين في الاسبوع الذي يسبق التاريخ المذكور، وفي الرابعة من عصر أحد ذلك الاسبوع، زعم أنه ودعه حتى صالة المطار، وافترقا على وعد خطابات كان كلاهما يعلم أنها لن تصل!.. بينما لم يبد أدنى تأثر على والدته التي كانت في زيارة لشقيقته التي تسكن بحرى.. فهي كانت من جهة تعلم أين مكانه، وتخبىء ذلك كسر حميم ومن جهة أخرى تولدت لديها قناعة مجهولة المنشأ، بأنه لن يموت قبل أن تتحقق رؤيتها السرِّيَة، التي لم تخبر بها أحد!

ومع ذلك كانت تشعر بقلق وتوتر، تسعى جاهدة لإخفائه. ولم يجرؤ أحد على مكاشفتها، بالأقاويل المتناثرة هنا وهناك، التى كانت قد صاحبت إختفاء شهاب أبوعلي المفاجىء، حتى لا تُثار فيها المخاوف والهواجس والظنون!..
لم يستطيع أحد أن يُثبت جغرافيا محددة صاحبت الاختفاء العظيم!.. وفي ذات هذه اللحظات التي كانت فيها الأفواه النتنة تتناقل الشائعات المتباينة، كانت تتشكل منها ـــذات الشائعات ـــ شائعات أخرى من وإلى داخل الجامعة!
أحد (البرالمة) الطلاب الجدد، أكد أنه التقى به في الأمس القريب وارتشف معه فنجاناً من القهوة في إحدى البيوت السِرِّيَة للحبش فى ديوم بحري، مما دفع سلمى لدعوة هذا (البرلوم) الكذاب إلى زجاجة من الميرندا، لكن تصادف في ذات الوقت أن مرَّ أحدهم بسلمى و(البرلوم) جالسين في الكافتريا يشربان المياه الغازية وسمع شيئاً من حديث (البرلوم) فقاطعه منتهراً، على أنه رآه منزوياً يرتشف الشاي، كعادته القديمة، بتلذذ تحت ظل أحد الأشجار على شارع السجانة في نقطة محددة قريبة من مقابر اليهود البائدة، يطيب لعساكر النظام العام إرتيادها بضمير وإنتظام!
والحقيقة أن الشابين كانا مفتونان بجمال سلمى، فوفر لهما الاختفاء الغامض لأبوعلي مدخلا مبررا لتجاذب أطراف الحديث معها، والذي كانا يأملان أن يفضي إلى نوع آخر من الأحاديث محط إهتمامهما المتيم!..
وكانت سلمى قد أحست مسبقا بغريزة الأنثى، بجندهما الخفي، فنهضت غاضبة وعينيها غائمتان بالدموع!
ليلتئذ كان أبوعلي هائماً كعادته في غرفة الداخلية، التي تسلل اليها خلسة، من نافذتها المطلة على شارع النيل..
الغرفة التي كثيراً ما أستضافه خالد فيها!.. اعتاد عليها واعتادت عليه، بل كان دائما يقول لخالد (غرفتنا)..
كان أبوعلي يشعر لإنتحار الفتى القزحي بطعم الحنظل، في حلقه، الآن والنار تأكل لوحة نَوَّآرْ، تشتعل فيها، يشعر بالتمزق التام ـــخالد انتحر هكذا دون اشعار ـــ كان يدرك أنه سيضع حداً لحياته ذات يوم ما، في زمن ما، ولم يكن ذلك يثير في نفسه أي نوع من الأحاسيس الرمادية المجهولة التي تنغص على الشخص حياته في هذه الحالة!

شعر بالتصالح مع الذات شيئاً فشيئاً يعمه لأول مرَّة منذ غادر المعتقل! لا لأنه أدرك الآن.. و الآن فقط الحقيقة، حقيقته!.. أو ربما لايود اتخاذ قرار ينبئ عن العجلة والتسرع كما هو حاله دائماً عند أتخاذ مثل هذا النَّوع من القرارت التى تجعله نادماً لزمن طويل!
نعم لأول مرَّة منذ غادر المعتقل يغمره شعور مريح مفعم بالصفح!

فى السابعه من عمره كان مغرماُ بالغناء في سقف البرندة الأبليكاش، حيث يطيب له الجلوس، وذات مرَّة وهو يحاول النزول، انغرز مسمار خبيث في سطح بربخه وشقه شقاً فاضحاً! لم يبكي، فقط كان قلقاً ومتوتراً، فقد علم مؤخراُ فقط أن هذا الشئ هو ما يميزه عن الإناث!
منذها عايش حزناً أشدَّ من الحزن، حتى أطلَّت نَوَّارْ على عالمه المحزون، عندما انحسر عن فخذيها المكتنزين الفستان على سطح الرَّابية، غنى حينها بلوعة:
الجرح جرحي براي ـــمنو البقاسمو معاي ـــ وكانت هذه الأغنية مثار تندر الأسرة لوقت طويل لا لأنه ألغى كلمة (بقاسي) و أحل محلها (بقاسموا) ولكن لأنه كان يعبر عن ما حدث لبربخه بشكل طريف!
يكاد أبوعلى يجزم على أن أحداً من أفراد الأسرة في ذلك الزمن لم يكن قادراً على استكناه المعنى العميق الذي يعنيه!

كانت والدته تترصده حتى لا يصعد إلى البرندة مرَّة أخرى فيعوق نفسه مجدداً!
وبرغم أنه وضع قراراً حاداً أنه لن يصعد أبداً إلا أنه سرعان ما محى هذا القرار عن ذاكرته بعد أن طمأنته جارتهم الأربعينية الجميلة وشرحت له وظيفة البربخ وحدثته عن أهمية ذلك الجهاز بشكل مستفيض وبالرغم من أنها دفعته لتجربة عملية معها ليكتشف فاعلية وظيفة بربخه من عدمها، إلا أنه لم يكن كامل الوثوق رغم ما بذلته له من تطمينات تستند على خبرة متوارثة عريقة في سلالتها التي لا تنجب سوى إناث كفلقة القمر!
بالطبع أمه لم تكن تعلم شيئاً عما حدث بينه وبين الجارة الاربعينية الفاتنة، اذ كانت تثق في براءته لحد تقديسه! دون أن تعلم أن الأربعينية الفاتنة تمكنت من إكتشاف منطقة واطية جدا داخله، فركزت على تنميتها لإثبات قدرة الاعضاء المحيطة ببربخه على أداء وظائفها التاريخية بكفاءة!.. وعندما قالت نوار ذات مرة:
"لنتزوج"..
تذكر لحظتها مغامراته مع تلك الأربعينية وأخذ يتحسس بربخه في حذر، كأنه يحاول إكتشاف أثر خدشة ذلك المسمار الخبيث، الذي وخزه ذات يوم أعلا برندة أبلكاش سوداء فى بيت ايجار قديم يطيب لمالكه أن ينكد عليهم عيشهم دائماً وفي أي وقت من الأوقات المزعجة طلبا للايجار!..

"آخيراً وافق مارتجلو، آدمو!"..
عصافير من الفرح الشفيف أطلت من عينيه، شاركها الانديا‌ح المخملي المخمور زقزقتها الشقية!.. استندا على جسديهما، تعانقا باحساس مضن! توحدا! كأن قوة ما تحركهما باتجاه عالم من الضباب الوردي!
وشيئاً فشيئاً بدأت تحاصرهما طيوف من الضوء الصافي الشفيف، تحولا إلى كنارى، تنامى، تنامى، تنامى تضخم إلى طائر مارتجلو النَّاري..
ارتفع الطائر توحدا مع مارتجلو وخفق لأعلا، فأعلا فأعلا.. لملم أبوعلي رماد لوحة نَوَّآرْ: ذاكرة الحراز البَرِّيْ الذي ظل متكوماً في وسط الغرفة لأيام..
نثر الرماد عبر النافذة المطلة على شارع النيل.. توقف الرماد في الهواء!.. وأخذ يتشكل.. تملكت أبوعلي حالة من الدهشة والصفح الصافي كالضوء المنبعث من القمر ليلة (أربعتاشر)..
وتبدى طائر النَّار، مارتجلو عن الرماد!.. تردد أبوعلى قليلاً، ثم قذف بنفسه علي الطائر!
كان أبوعلي قد توحد مع الطائر الذي أخذ يحلق، محترقاً حلق الطائر.. حلَّق وحلَّق حتى تضائل تدريجياً إلى شراشف لهبية متقطعة، آخذة فى التضاؤل!
عندما أسفرت شمس الصباح فوجئ الناس، كل الناس باختفاء أبوعلي وسلوى و القصر الجمهورى وكبري الحرية و الجامع الكبير والشهداء والمتحف الوطني..
كل معالم الخرطوم.. وكل معالم البلاد الكبيرة، لم يكن ثمة أثر لها ! .. لم يكن ثمة أثر لمعالم جغرافيا الأمس/ الراهن.. فقط ثمة جبل مجهول ينتصب فى قلب السوق العربى ملقياً بظلاله حتى مواقع الطوابي القديمة غربي النيل، وبوابة عبدالقيوم!
فتح الناس راديوهاتهم وأجهزة التلفزيون علهم يسمعون مارشات عسكرية، أو بياناً إنقلابيا ما.. لكن لم يكن ثمة صوت سوى:
مارتجلووووه.. مارتجلووووو..
مارتجلووووو.. وو.. ووووو...
كوستى، الخرطوم،وادي صالح

93 - 1999م
لانسينغ، ميتشيغان
2020